

عبد الحميد كشك

في
رَبَابِ التَّفْسِيرِ

الجزء الثاني عشر

المكتبة المصرية الحديث

الرزق والحلق

* وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ الْيَوْمَ يَا تَبِيبُ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٨﴾

المفردات : ﴿الدابة﴾ : اسم لكل نسمة حية تدب على الأرض زحفاً أو على قوائم شتين فأكثر وغلب عرفاً على ما يركب من الخيل والبغال والحمير . والدبُّ والديب : الانتقال الخفيف البطيء كديب الطفل والشيخ المسن والعقرب ﴿والمستقر﴾ : مكان الاستقرار من الأرض . ﴿والمستودع﴾ : حيث كان مودعاً قبل الاستقرار في صلب أو رحم أو بيضة ﴿والعرش﴾ : مركز نظام الملك ومصدر التدبير . ﴿والبلاء﴾ : الاختبار والامتحان . ﴿والأمة﴾ : الطائفة أو المدة من الزمن كما قال تعالى ﴿واذكر بعد أمة﴾ (١) وأصلها الجماعة من نوع واحد ، أو دين واحد ، أو زمن واحد ﴿مصروفاً عنهم﴾ : أى مدفوعاً ومجبوراً . ﴿وحاق﴾ : نزل وأحاط .

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل

الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل

فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا

لكنه خلق الإنسان من عجل

اعلم يا أخا الإسلام علم اليقين ، بل عين اليقين ، بل حق اليقين أنه لا يملك الروح والرزق إلا الله ﴿وماتدرى نفس ماذا تكسب غداً وماتدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير﴾ (٢) وماقدر على ماضغيك أب تمضغاه فلا بد أن تمضغاه فامضغه بعزة ، ولو ركب ابن آدم الريح فراراً من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع في فمه (ولو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خصاصاً وتروح بطاناً) (٣).

قال الحسن البصرى رضى الله عنه : علمت أن رزقي لا يأخذه غيرى ، فاطمأن قلبي ، وعلمت أن

(٢) الآية ٣٤ من سورة لقمان .

(١) الآية ٤٥ من سورة يوسف .

(٣) أخرجه الترمذى في الزهد (٣٣) . وابن ماجه في الزهد (١٤) . والإمام أحمد في (١ : ٥٢، ٣٠) .

عملي لا يقوم به سوى فاشتغلت به ، وعلمت أن الله مطلع علي فاستحييت أن يراني على معصية ، وعلمت أن الموت ينتظرنى فأعددت الزاد للقاء الله .

اعلم يا ابن آدم أن الله قد ضمن الأرزاق لكل خلقه ، وليس الرزق مقصوراً على المأكل والمشرب ، إنما هو أعم من ذلك وأرحب أفقاً ، فهدوء البال رزق ، والعافية رزق ، وحسن التدبير رزق ، والعلم رزق ، والذكاء رزق ، والصحة رزق .

وقد ضمن الله تعالى الأرزاق لكل خلقه ، فهو يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا لمن يحب ﴿١﴾ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴿٢﴾ . ﴿٣﴾ وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿٤﴾ .

﴿٥﴾ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴿٦﴾ ﴿٧﴾ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون * فذلکم الله ربکم الحق فإذا بعد الضلال فأنى تصرفون ﴿٨﴾ ﴿٩﴾ وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون * وفي السماء رزقكم وما توعدون * فوزب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴿١٠﴾

وما من دابة في الأرض إلا وقد ضمن الله رزقها وهداها إليه ، فالظير تغدو خماساً وتروح بطاناً : ﴿١١﴾ قال فمن ربكما يا موسى * قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴿١٢﴾ .

والرزق قد جاء مقترنا بعلم الله المحيط ، فسبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

قال تعالى ﴿١٣﴾ ويعلم مستقرها ومستودعها ﴿١٤﴾ : يعلم مستقرها على تلك الأرض كما علم مستودعها من قبل في عالم الأرحام ، كل في كتاب مبين ، وكل شيء أحصيناه كتاباً ، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴿١٥﴾ قال فما بال القرون الأولى * قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى * الذي جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهي * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴿١٦﴾ .

وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام . وتقدير هذه الأيام في علم الله تعالى ﴿١٧﴾ وكان عرشه على الماء ﴿١٨﴾ أى قبل خلق السموات والأرض ، والعرش غيب من الغيوب ، وهو خلق عظيم لا يعلمه إلا خالق القوى والقدر .

(١) الآية ١٢٦ من سورة البقرة . (٢) الآية ٦٠ من سورة العنكبوت . (٣) الآية ٢٠ - ٢٣ من سورة الذاريات .

(٤) الآية ٥٥ - ٥٨ من سورة الذاريات (٥) الآية ٣١ ، ٣٢ من سورة يونس (٦) الآية ٤٩ ، ٥٠ من سورة طه .

(٧) الآية ٥١ - ٥٥ من سورة طه .

وتفيد هذه الآية خلق الماء قبل خلق السموات والأرض ، قال تعالى ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾^(١) وقال : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾^(٢).

وقد سخر الله لنا مافي السموات ومافي الأرض ليختبرنا بالعمل قال تعالى ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير * الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذي خلق سبع سموات طباقا ﴾^(٣).

وقال سبحانه ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ وفعل الله تعالى مبنى على الحكمة منزه عن العبث ، لذا فقد جاء البعث بعد ذكر الخلق ، قال تعالى : ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ .

أى ما أردت يا محمد بذكر البعث إلا لكى تصرفنا عن هذه الدنيا واستمتاعنا بلذائدها ، هكذا قال الكافرون ، ولقد طلبوا تعجيل العذاب استهزاء ، ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾^(٤) قال تعالى ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾^(٥).

قال تعالى : ﴿ ولئن أخرجنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾ أى أخلصناهم إلى أجل معلوم قدره الله فى علمه القديم ، ليقولن استهزاءً بوعد الله ورسوله ﴿ ما يجيبه ﴾ ما يمنعه فىأتى الرد القاطع والوعيد الحاسم ﴿ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

﴿ سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذى المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاصبر صبراً جميلاً * إنهم يرونه بعيداً * ونراه قريباً ﴾^(٦) .
إنه يوم ينزل بهم هذا العذاب لا يصرف عنهم ، ليس له دافع من الله ، وعندما يحيط بهم الذى كانوا يستهزئون به فى الدنيا ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾^(٧).

نماذج من البشر

وَلَيْنِ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَيْنِ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مِّسْتَهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

(١) الآية ٣٠ من سورة الأنبياء . (٢) الآيات ١ - ٣ من سورة الملك . (٣) الآيات ٥٣ - ٥٥ من سورة العنكبوت .

(٤) الآية ٤٥ من سورة النور . (٥) الآية ١٦ من سورة ص . (٦) الآيات ١ - ٦ من سورة المعارج .

(٧) الآية ٢٥ من سورة النور .

المفردات : ﴿ الإذافة ﴾ : هنا : الإعطاء القليل . ﴿ النزاع ﴾ : السلب والحرمان
 ﴿ واليئوس ﴾ : شديد اليأس من عود تلك النعمة ﴿ والكفور ﴾ : كثير الكفران والجحود لما سلف
 عليه من النعم ﴿ والنعماء والنعمة والنعمى ﴾ : الخير والمنفعة ويقابلها الضراء والضر . ﴿ وفرح ﴾ :
 بطر معتبر بهذه النعمة . ﴿ فخور ﴾ : متعظم على الناس بما أوتي من النعم مشغول بذلك عن القيام
 بشكرها .

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى أنه خلق السموات والأرض ليلبو الإنسان أيشكر أم يكفر؟ قفى على
 ذلك طبيعة الإنسان في ذلك ، وهى أنه إذا أصابته نعماء ثم نزلت منه قنط من روح الله وكفر بها ، وإذا
 أذاقه نعمة بعد بؤس و فخر - هكذا شأن الإنسان - إلا من صبر وشكر وعمل صالحا .
 ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ﴾ :

أى ولئن أعطينا الإنسان نوعا من أنواع النعم ، كرخاء عيش ، وبسطة رزق ووضحة وأمن وولد
 بار ، رحمة مبتدأة منا أذقناه لذاتها ، فكان شديد الأعباط بها ، ثم سلينا ذلك بما يحدث من الأسباب التى
 قدرها الله فى الخليقة كالمرض والموت والعسر ، إنه ليظل فى هذه الحال شديد اليأس من الرحمة ، قاطعا
 للرجاء من عود تلك النعمة ، كثير الكفران لغيرها من النعم التى لا يزال يتمتع بها فضلا عما سلف منها .
والخلاصة : أنه يجمع بين اليأس بعودة ما نزع منه ، والكفر بما بقى له ، لحرمانه من فضيلتى الصبر
 والشكر .

﴿ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ﴾

أى ولئن كشفنا عنه الضراء التى أصابته وحل محلها نعماء ، كشفاء من مرض ، وزيادة قوة ،
 وخروج من عسر إلى يسر ، ونجاة من خوف وذل ، إنه ليقولن : ذهب ما كان يسوءنى من المصائب
 والضراء ولن يعود ، وماهى إلا سحابة صيف قد تقشّعت ، وعلى أن أنساها وأتمتع بتلك اللذات ، وإنه
 حينئذ لشديد الفرح بما يهبجه البطر بتلك النعمة ، وإنه ليغالى فى الفخر والتعالى على الناس ، والاحتقار
 لمن دونه فيها .

الخلاصة : أنا إذا منحنا هذا الإنسان اليئوس الكفور نعماء أذقناه لذتها بعد ضراء ، باقترافه أسبابها
 لم يقابلها بشكر الله عليها ، بل يبطر ويفخر على الناس ، ولا يقوم بما يجب عليه من مواساة البائسين
 الفقراء ، وعمل الخير لبني الانسان ، كفاء ما هو متمتع به من تلك النعم .
 ثم استثنى سبحانه من جنس الإنسان فيما ذكر من حاله السالفتين قبل الصابرين الذين يعملون
 الصالحات فقال :

﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾

أى إلا الذين صبروا على ما أصابهم من الضراء إيمانا بالله ، واحتسابا للأجر عنده ، وعملوا الصالحات
 حينما يكشفها ، ويبدل النعماء بها ، ويشكره باستعمالها ، فيما يرضيه من عمل البر والخير لعباده ، أولئك

لهم مغفرة من ربهم تمحو ماعلق بأنفسهم من ذنب أو تقصير ، وأجر كبير في الآخرة على ماوقفوا لعمله من بر وخير كثير .

والخلاصة : إن الإنسان وإن كان مؤمنا حق الإيمان لا يسلم من ضيق صدر حين حلول الضراء والمصائب ، وذلك مما ينافي كمال الرضا ، كما لا يسلم حين النعماء من شيء من الزهو والتقصير في الشكر ، فيغفر له كل منهنا يصبره وشكره ، وإنايته إلى ربه .

وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى ﴿ والعصر ﴾ إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴿ (١) .

ووصف الأجر بالكبير - لما حواه من نعيم سرمدي ، وأمن من العذاب ، ورضا من الله عز وجل ، ونظر إلى وجهه الكريم ، ورضوان من الله أكبر .

لا يضيّق صدرك

فَلَعَلَّكَ تَارِكًا بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقًا بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

المفردات : ﴿ لعل ﴾ : هنا للاستفهام الإنكارى الذى يفيد النهى ﴿ وضيق الصدر ﴾ : يراد به الغم والحزن . ﴿ الكنز ﴾ : ما يدخر من المال فى الأرض . ﴿ والوكيل ﴾ : الرقيب الحفيظ للأموال الموكلة بحراستها . ﴿ والاستجابة للداعى ﴾ : إجابته . ﴿ والإسلام ﴾ : الإذعان والخضوع والإنقياد . اقترح المشركون على رسول الله ﷺ أمورا علقوا إيمانهم عليها ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ففجر الأنهار خلالها تفجيرا . ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ﴾ أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ﴾ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ﴿ (١) .

كما اقترحوا عليه أن ينزل عليه كثر أو يأتي معه ملك .. إلى غير ذلك من المقترحات التى بلغت حداً لا يُطاق ، ولا يقبله عقل . حتى لقد قالوا له : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، فنزل التثبيت والإرشاد والتوجيه من الله : لا تترك بعض ما أوحى إليك من الكتاب ، ولا يضيّق صدرك بما يقولون من إنزال الكنز ، ومجىء الملك ، إن أنت إلا نذير ، والأمر كله لله ، فهو الوكيل الرقيب على عباده ﴿ وقل الحق

من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴿١﴾ .

قال جل شأنه : ﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها وما أنا عليكم بوكيل * واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾ ﴿٢﴾ .

ثم ينتقل الحديث إلى ضرب آخر من ضروب العناد المقيت والجدل العقيم إلى قولهم عن القرآن « إنه مفترى » كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ، قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيمًا ﴾ ﴿٣﴾ .

ولقد تحداهم الله تبارك وتعالى وهم الذين ملكوا أزمّة اللغة ، وعرفوا بأنهم أصحاب الفصاحة وأرباب البلاغة ، لقد تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن فقال : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ ﴿٤﴾ فعجزوا وفتحداهم أن يأتوا بعشر سور كما فى قوله تعالى : ﴿ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾ ﴿٥﴾ فعجزوا .. فتحداهم أن يأتوا بسورة كما فى قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ ﴿٦﴾ .

فتأمل معى هذه الدرجة القصوى من التحدى والتى قال الله تعالى فيها : ﴿ وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ وقال فيها : ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ بل لقد بين لهم نتيجة هذا التحدى فقال : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ ﴿٧﴾ .

لقد عجزوا وبلغ من عجزهم أن ﴿ قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ ﴿٨﴾ وإذ قالوا : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ﴿٩﴾ .

ولو كانوا يستطيعون أن يأتوا لأنوا فذلك أيسر سبيلا من خوضهم المعارك المسلحة التى خاضوها مع المسلمين ، لكنهم قوم آثروا اللجاج والعناد على قبول الحق كما قال تعالى : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا ﴾ ﴿١٠﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ .

- (١) الآية ٢٩ من سورة الكهف . (٢) الآيات ١٠٨ ، ١٠٩ من سورة يونس . (٣) الآيات ٤ - ٦ من سورة الفرقان .
 (٤) الآية ٣٤ من سورة الطور . (٥) الآية ١٣ من سورة هود . (٦) الآيات ٢٣ ، ٢٤ من سورة البقرة .
 (٧) الآية ٨٨ من سورة الإسراء . (٨) الآية ٣١ من سورة الأنفال . (٩) الآية ٢٢ من سورة الأنفال .
 (١٠) الآية ٥٦ من سورة الكهف .

أى إن لم يستجب لكم هؤلاء الأعوان الذين قال الله فيهم : ﴿ وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ وفي قوله : ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ . فإن لم يستجيبوا لكم وعجزتم عن الإتيان بسورة أو بعشر ، فما لكم بعد ذلك من حجة ولا برهان ، فقد بدا الصبح لذي عينين وبرح الخفاء وظهر الحق .

فاعلموا أن هذا القرآن أنزل يعلم الله وحده ، وأن الذى أنزله واحد لا شريك له لا إله إلا هو ، وإذا كان ذلك كذلك . وهو كذلك . حقا . فأسلموا وانقادوا وأذعنوا واسمعوا وأطيعوا ، ولا تجادلوا فى الحق بعد ما تبين ، فإن الحق واضح ، والطريق لائح ، والمنادى صائح .

الويل لهؤلاء

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَلْتُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخُسُونَ ﴿١٥﴾
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

المفردات : ﴿ نوف إليهم ﴾ : أى نوصل إليهم ، ﴿ ولا يبخسون ﴾ : لا ينقصون ، ﴿ وحبط ﴾ : أى فسد وبطل ولم ينتفعوا به .

قال العوفي عن ابن عباس فى هذه الآية أن أهل الرياء يعطون بحسناتهم فى الدنيا ، وذلك أنهم لا يظلمون نقيرا ، يقول من عمل صالحا التماس الدنيا صوما أو صلاة أو تهجد بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا يقول الله تعالى : أوفيه الذى التمس فى الدنيا من المثابة ، وحبط عمله الذى كان يعمله لالتماس الدنيا ، وهو فيلا الآخرة من الخاسرين .

وقال قتادة : من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته جازاه الله بحسناته فى الدنيا ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء ، وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا ، ويثاب عليها فى الآخرة .

قال عليه السلام : [من أصبح وهمه الدنيا فرّق الله عليه شمله وجعل فقره بين عينيه ولا ينال من الدنيا إلا ما كتب الله له . ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله عليه شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة] (١) .

وقال تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ﴾ * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴿ (٢) وقال تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ﴾ (٣) .

(١) أخرجه ابن ماجه فى الزهد (٢) . وأبو داود فى الزكاة (٣٤) . والترمذى فى القيامة (٣٠) . والإمام أحمد فى (١٨٣:٥) .

(٢) الآيات ١٨ - ٢١ من سورة الإسراء . (٣) الآية ٢٠ من سورة الشورى .

دلائل صدق النبوة

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِءَ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِءَ كَتَبَ مُوسَىٰٓ إِيمَانًا وَرَحْمَةً ۗ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِءَ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِءَ مِنَ الْأَحْزَابِ ۖ فَالْنَارُ مَوْعِدُهُ ۗ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۗ إِنَّهُ الْحَقُّ مِّن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

المفردات : ﴿ البينة ﴾ : ما يتبين به الحق كالبرهان في الأمور العقلية ، والنصوص في الأمور النقلية ، والتجارب في الأمور الحسية ، والشهادة في القضاء ﴿ ويتلوه ﴾ : يتبعه ، والشاهد : هو القرآن ، ﴿ والموعود ﴾ : مكان الوعد وهي النار يردها كما قال : ﴿ ليس لهم في الآخرة إلا النار ﴾ . ﴿ والمرية ﴾ : الشك .

وفي هذه الآية الكريمة يخبرنا الله جلَّت قدرته عن الذين هم على بينة من ربهم وحجة وبرهان ، والمراد بالبينة هنا الفطرة التي فطر الله الناس عليها من الاعتراف بأنه هو الحق لا إله إلا هو ، كما قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ (١).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟] (٢).

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله ﷺ قال : [يقول الله تعالى إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا] (٣).

وفي المسند والسنن [كل مولود يولد على هذه الملة حتى يعرب عنه لسانه] فالمؤمن باق على هذه الفطرة .

أما الشاهد الذي يتلوه من ربه فقيل إنه جبريل ، وقيل محمد ﷺ ، والصحيح أنه القرآن الذي نزل به جبريل من لدن حكيم خبير ، على قلب البشير النذير ، صلوات ربي وسلامه عليه .

وقال في شأنه رب العزة تبارك وتعالى : ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ (٤)

(١) الآية ٣٠ من سورة الروم .

(٢) أخرجه البخاري في الجنايز (٩٢،٧٩) وفي التفسير (سورة ٣٠ : ١) وفي القدر (٣) . ومسلم في القدر (٢٤،٢٢) . وأبو داود في السنة (١٧) . والإمام مالك في الجنايز (٥٣) . والإمام أحمد في (٢ : ٢٣٣، ٢٧٥، ٣١٥، ٣٤٧، ٣٩٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) . والإمام أحمد في (٤ : ١٦٢) . (٤) الآية ١٩ من سورة الأنعام .

فالقُرآن شاهد صدق ، ودليل حق على نبوته ﷺ ، إذ هو الكتاب المعجز المتعبد بتلاوته ، المنقول إلينا بالتواتر ، المشتمل على قواعد العقائد وشعائر العبادات ومبادئ الأحكام ومناهج السلوك .

كذلك من دلائل صدق نبوته كتاب موسى الذى بشرَّ بيئته خاتم المرسلين وقال الله له فيه : [أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صحَّاب فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عميا وآذانا صمًا وقلوبا غلفا] (١).

قال تعالى : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ أى أولئك الذين على بينة من ربهم ، وعلى فطرة الإيمان ونور الإسلام ، يؤمنون بهذا القرآن إيمانا جازما مبنيًا على اليقين القطعى ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب ﴾ [أى من طوائف البشر] فالنار موعده ومثواه ومأواه .

جاء فى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعري رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : [والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار] (٢).

قوله تعالى : ﴿ فلاتك فى مرية منه ﴾ أى لا تكن أبها المخاطب فى شك من هذا الكتاب فإنه تنزيل من الرحمن الرحيم . كما قال تعالى : ﴿ ألم ﴾ تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين * أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك ﴾ (٣).

قوله تعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ كقوله جلَّ شأنه : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ (٤) وقوله جلَّ جلاله : ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ (٥).

لا أحد أظلم من هؤلاء

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا

(١) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٣: ٤٨) وفى البيوع (٥٠) . وأبو داود فى المقدمة (٢) وفى فضائل القرآن (١) .

(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان (٢٤٠) . (٣) الآيات ١ - ٣ من سورة السجدة .

(٤) الآية ١٠٣ من سورة يوسف . (٥) الآية ١١٦ من سورة الأنعام .

يَبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ
أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِسُونَ ﴿٢٣﴾

المفردات : ﴿الأشهاد﴾ : واحدهم شاهد . ﴿واللعنة﴾ : الطرد من الرحمة . ﴿والصد
عن سبيل الله﴾ : الصرف عنه . ﴿والعوج﴾ : الالتواء . ﴿ومعجزين في الأرض﴾ : أى لا يمكنهم
أن يهربوا من عذابه . ﴿وضل﴾ : أى غاب . ﴿ولا جرم﴾ : أى حقا .
يخبر سبحانه وتعالى أنه لا أحد أظلم ممن افترى عليه سبحانه كذبا في أقوال أو أفعال أو تشريعات أو
أحكام أو توحيد (ومن) هنا للاستفهام الإنكارى الذى يفيد النفي .

فمن افترى على الله كذبا بأن قال على الله ما لم يقله ، وحكم بغير ما أنزل ، هؤلاء يُعرضون على النار
في ساحة الحساب ، حيث يشهد عليهم الأشهاد ويقولون هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، وكفاهم بهذا
خزيا ، وحسبهم بتلك الشهادة فضيحة . ألا لعنة الله على الظالمين ، فالظلم ظلمات يوم القيامة ، والظلم
مرتعه وخيم ، والظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر . ﴿وأندر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا
ربنا أخرجنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتبعض الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال *
وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾ (١) .

وفي حديث ابن عمر في الصحيحين وغيرهما : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [إن الله يدني المؤمن
حتى يضع كنفه عليه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب
كذا ؟ فيقول : رب أعرف ، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال فإني سترتها عليك في
الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته . وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد هؤلاء الذين
كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين] (٢) .

هؤلاء الظالمون الذين استحقوا لعنة الله كانوا في الدنيا يصدون الناس عن الإيمان بالله ، ويصرفونهم عن
اتباع سبيل الله ، ويبغون السبيل المستقيمة ، عوجاً ملتوية متعرجة . وقد أضافوا إلى تلك الجرائم كفرهم
باليوم الآخر . إن أولئك الضالين المضلين لم يكونوا بقادرين على أن يهربوا من عقاب الله . وليس لهم
أعوان ولا أنصار يمنعون العذاب عنهم . فلا أحد يستطيع أن يقف حائلا بين هؤلاء وبين أمر الله . ﴿وإذا
أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾ (٣) .

هؤلاء يضاعف لهم العذاب جزاء ضلالهم وإضلالهم ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد

(١) الأيتان ٤٤ ، ٤٥ من سورة إبراهيم .

(٢) أخرجه البخارى في الأدب (٦٠) وفي المظالم (٢) وفي التفسير (سورة ٤: ١١) وفي التوحيد (٣٦) . ومسلم في التوبة (٥٢) . وابن

ماجه في المقدمة (١٣) . والإمام أحمد في (١٠٥٠٧٤: ٢) .

(٣) الآية ١١ من سورة الرعد .

ضلوا ضلالا بعيدا * إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا ﴿١﴾ .

قال جل شأنه : ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ .

قوله تعالى : ﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾ أى لشدة كفرهم وطغيانهم وعنادهم عطلوا حواسهم كما فى قوله تعالى : ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ (٢) . وكما فى قوله جل شأنه : ﴿وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون﴾ (٣) .

﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ وأى خسران بعد أن عطلوا حواسهم ، وأغلقوا نوافذ المعرفة ، وبدلوا نعمة قومهم كفرا وأحلوا قومهم دار البوار .

ومما يزيدهم حسرة على حسرتهم أن أصنامهم التى عبدوها قد ضلّت عنهم يوم القيامة وغابت ، لذلك تراهم فى النار يقولون : ﴿فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم﴾ (٤) . لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون . أى حقا أنهم هم الأخسرون أعمالا . ﴿الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ﴿٥﴾ .

أصحاب الجنة

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

المفردات : ﴿أخبتوا﴾ : أصل الإخبات قصد الخبت وهو المكان المظلمن المستوى والمراد خشعوا وأخلصوا لله .

أما من كان عكس هذا فالله يقول فيه : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وخشعوا له ، واطمأنت نفوسهم بالإيمان ، ولانت قلوبهم ، ووجلت بالقرآن أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

مثل الكافر والمؤمن كالأعمى والأصم والسميع والبصير هل يستويان مثلا ، أتجهلون هذا المثل الحسى والفارق الكبير فلا تتذكرون ؟

(٤) الآيتان ١٠٠ - ١٠١ من سورة الشعراء .

(٥) الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥ من سورة الكهف .

(١) الآيات ١٦٧ - ١٦٩ من سورة النساء .

(٢) الآية ٢٦ من سورة فصلت .

(٣) الآية ٥ من سورة فصلت .

قصة نوح

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ
 عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْبِسْمِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا
 وَمَا نَرِيكَ أَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرِي لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ
 نَنْظُنُّكُمْ كَذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ
 فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْكُمْ مَوَاهِبًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ
 أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوهَا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ قَوْمًا
 تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ
 عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي
 أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾
 قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدَالِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ
 إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ
 لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ إِنْ
 أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ
 إِلَّا مَنْ قَدَّءَ أَمِنَ فَلَا تَبْتَهِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا
 تَخِطْبِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ
 قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ
 تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ
 التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ آثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ

ءَامِنَ وَمَاءَ امْنٍ مَعَهُ ۚ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤١﴾ * وَقَالَ آرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجْرُهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ آرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٤﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْءِ أَقْلِعِي وَغَبَضَ الْمَاءُ وَقَضَى الْأَمْرَ وَأَسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٥﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ يُنوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٨﴾ قِيلَ يُنوحُ أَمِيطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّن مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٩﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ ۚ إِنَّ الْعُقُوبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٥٠﴾

القصة في القرآن الكريم

إن من أغراض القرآن المهمة إثبات التوحيد وما يتبعه من إثبات النبوة والبعث ، والكلام في التشريع للفرد والجماعة والأمة ، والقصص الخاص بالأمم السابقة وهو غالبا يساق في السور المكية والمبدوءة بأحرف مقطعة كهذه السورة مثلا .

وهنا يظهر سؤال لماذا سيقت القصة في القرآن ؟ وما السر في اختلاف الأسلوب للقصة الواحدة ؟ ولماذا كررت في عدة سور ؟

ولقد كان القصص في كل لغة لونا من ألوان الأدب الفني الرائع ، لما له من الأثر النفسى في قلوب سامعيه ، والقصص في القرآن ينبئنا عن أخبار الأنبياء والرسل ، وما حصل لهم ، وكيف قاموا بدعوتهم ، وكيف عاجلوا أزماتهم ، وما انتهى إليه أمرهم ، وعلى العموم فهو مدرسة إلهية معلّموها الأنبياء ، وتلاميذها الأمم .

ولقد سبقت للعبرة والعظة ، حيث يقف المسلمون والمشركون على أحوال من تقدمهم من الأمم ، فيعتبر ذوو الألباب ويتعظون ، وفيها التسلية الكاملة للنبي ﷺ وصحبه ، من حيث يقفون على أخبار الرسل وأممهم ، وكيف كانت العاقبة للمتقين ، والدائرة على الكافرين المعاندين .

وفي هذا تثبيت لهم ، وشحذ لعزائمهم ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾^(١) ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾^(٢) والعبرة والعظة تظهر في قوله تعالى ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذين بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾^(٣) .

ولقد سبقت القصة دليلا على صدق الرسول ، وأن خيره من السماء ، إذ هو يقص أخبارا ما كان يعلمها هو ولا أحد من قومه ، ولا يكون هذا إلا بوحي من السماء ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ .
﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾^(٤)

وهي علاج للقلوب ، ودواء للنفوس ، لما فيها من أخبار الأمم وما حل بالعاصين من عاجل بأس الله ، فأهل اليقين وغيرهم إذا تلوها تراءى لهم من ملكه وسلطانه وعظمته وجبروته ، حيث يبطش بأعدائه ما تذهل منه النفوس ، وتشيب منه الرؤوس « شيبنتي سورة هود وأخواتها » صدق رسول الله .

والقصة مدرسة للمؤمنين المنتفعين بهدى القرآن ﴿ هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ . فيها أحسن الدروس ، وأقوى الأمثال التي تضرب لتحمل الدعاة والمرشدين ﴿ إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ ﴿ يا قوم ليس بي سفاهة ولكن رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ﴾ ﴿ قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾ إلى آخر ما في قصة نوح .

أما تكرارها في القرآن فلما في أغراضها ومقاصدها من معان جليلة وفوائد سامية يحرص القرآن دائماً على ذكرها لتكون ماثلة أمام أعين المسلمين بكل لون وأسلوب ، ولا غرابة فإننا نرى أصحاب الثورات والدعوات دائماً في كل خطبة وفي كل موقف يرددون مبادئهم وأغراضهم وأعمالهم بأساليب مختلفة .

ولعل السر في اختلاف الأسلوب في القصة الواحدة تجديد النشاط وطرده السامة والملل من نفس القارئ والسماع ولا تنس أن لكل سورة لونا خاصا وصفة خاصة وجرسا خاصاً ، وفواصل خاصة وحالا للمخاطب خاصة تتناسب مع السياق وعلى العموم فلكل قصة سياق يتناسب مع ما سبقها وما أتى بعدها وهذا بحث يحتاج إلى كتاب يبحث فيه حال القصة الواحدة مع كل الملابس السابقة .

(٣) الآية ١١١ من سورة يوسف .

(١) الآية ٣٥ من سورة الأحقاف .

(٤) الآية ١٠٢ من سورة يوسف .

(٢) الآية ١٢٠ من سورة هود .

المفردات : ﴿ الملأ ﴾ : الأشراف والرعماء . ﴿ وأراذل ﴾ : واحدهم أرذل وهو الخسيس الدنيء . ﴿ وبادى الرأى ﴾ : أى ظاهره قبل التأمل . ﴿ أرايتم ﴾ : أى أخبروني . ﴿ والبينة ﴾ : ما يتبين به الحق . ﴿ وعميت ﴾ : أخفيت . ﴿ وطرده ﴾ : أبعدته . ﴿ وتجهلون ﴾ : أى تسفهون عليهم وهو من الجهالة التى تضاد العقل والحلم . ﴿ وتذكرون ﴾ : أصله تذكرون . ﴿ وزرى ﴾ : على فلان زراية : عليه واستهزأ به . ﴿ أصل الجدال ﴾ : هو الصراع وإسقاط المرء صاحبه على الجدالة وهى الأرض الصلبة ثم استعمل فى المخاصمة والمنازعة بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب . ﴿ والنصح ﴾ : تحرى الخير والصلاح للمنصوح له والإخلاص فيه قولاً وعملاً . ﴿ الإغواء ﴾ : الإيقاع فى الغى وهو الفساد الحسى والمعنوى ﴿ والإجرام ﴾ : الفعل القبيح الضار الذى يستحق فاعله العقاب . ﴿ ابتأس ﴾ : اشتد بؤسه وحزنه . ﴿ والفلك ﴾ : السفينة ، ويطلق على الواحد والجمع والمراد بالأعين هنا : شدة الحفظ والحراسة ﴿ وسخر منه ﴾ : استهزأ به . ﴿ ويخزيه ﴾ : يذله ويفضحه . ﴿ ومقيم ﴾ : أى دائم . ﴿ الفور والفوران ﴾ : الارتفاع القوى . يقال فى الماء إذا نبغ وجرى وإذا علا وارتفع والمراد منه هنا اشتداد غضب الله على أولئك المشركين الظالمين لأنفسهم وللناس وحلول وقت انتقامه منهم . ﴿ والتثور ﴾ : ما يخبز فيه الخبز - اتفقت فيه لغة العرب والعجم . ﴿ وأهل بيت الرجل ﴾ : نسأؤه وأولاده وأزواجهم . ﴿ ومجرمها ومرساها ﴾ : أى إجراؤها وإرساؤها . ﴿ ومعزل ﴾ : أى مكان عزلة وانفراد . ﴿ وآوى ﴾ : أى ألبأ وعصمه : حفظه ﴿ والبلع ﴾ : ازدراد الطعام والشراب بسرعة . ﴿ وغاض الماء ﴾ : غار فى الأرض ونضب . ﴿ والجودى ﴾ : جبل بالموصل .

بعد أن ذكر بعثة النبى الكريم ، وأثبت بالبرهان أنه رسول من رب العالمين ، وأن القرآن وحى من الرحمن الرحيم ، قفى على ذلك بقبصص الأنبياء قبله ، ليبين لقومه أن محمداً ﷺ ليس بدعاً من الرسل ، وأنه إنما بعث بمثل ما بعث به من قبله من الدعوة إلى عبادة الله وحده ، والإيمان بالبعث والجزاء ، فحاله معهم كحال من قبله من الرسل عليهم السلام مع أقوامهم جملة وتفصيلاً ، كما قال سبحانه ﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لستنتنا تحويلاً ﴾ (١) .

قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إلى لكم نذير مبين ﴾ .

أى ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه قائلاً لهم إني لكم نذير من الله أنذركم بأسه على كفركم به ، فآمنوا به وأطيعوا أمره .

ثم فسر هذا الإنذار بقوله : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ أى بالآتعبدوا إلا الله ، ولا تشركوا به شيئاً .

(١) الآية ٧٧ من سورة الإسراء .

وكانوا أول من أشرك بالله ، واتخذوا الأنداد ، وكان هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ، ثم علل هذا بقوله :

﴿ إني أخاف عليكم ﴾ أى إن لم تخصوه بالعبادة ، وتفردوه بالتوحيد ، وتخلعوا ما دونه من الأنداد والأوثان ، أخاف عليكم من الله عذاب يوم مؤلم عقابه ، وعذابه لمن عذب فيه .

وقد أجابوه عن مقالته بأربع حجج داحضة ظنا منهم أنها تكفى في رد دعوته :

١ - ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا ﴾ :

أى أن الأشراف والزعماء بادروا إلى الجواب بقولهم : ما أنت إلا بشر مثلنا في الجنس ، لا مزية لك علينا تجعلنا نطيعك ونذعن لنبوتك .

٢ - ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ﴾ :

أى وأنا لم نرمتبعيك إلا الأخصاء كالزراع والصناع ، ومن في حكمهم في المكانة الاجتماعية ، بادي الرأي قبل التأمل في عواقبه ، والنظر في مستنده ، وترجيح العقل له ، وهذا مما يرجح رد الدعوة والتولى عنها .

٣ - ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ :

أى وما نرى لك ولمن اتبعك أدنى امتياز عنا من قوة أو كثرة أو علم أو أصالة رأى ، يحملنا على اتباعكم ، ويجعلنا ننزل عن جاهنا ومالنا ونكون نحن وأنتم سواء .

٤ - ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ :

أى بل إنا نرجح الحكم عليك وعليهم بالكذب ، فأنت كاذب في دعوى النبوة ، وهم كاذبون في تصديقك ، وهذه الشبهة الأخيرة طعن على نوح عليه السلام ، أشركوا فيها أتباعه ولم يجابوه بها وحده ، كما أنهم جعلوها ظناً ولم يجزموا بها ، لأن ذلك كاف في رد دعوته ، وعدم الدخول في دينه .

قوله تعالى : ﴿ قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ﴾ :

أى قال يا قومي . أخبروني ماذا ترون وماذا تقولون ، إن كنت على حجة فيما جئتكم به من ربي ، يتبين لي بها أنه الحق من عنده ، لا من عندى ، ومن كسبى البشرى . الذى تشاركوننى فيه ، وآتاني رحمة من عنده ، وهى النبوة ، وتعاليم الوحي التى هى سبب رحمة خاصة لمن يهتدى بها ، فحججها عنكم جهلكم وغروركم بالمال والجاه ، فلم تتبينوا منها ما تدل عليه من التفرقة بينى وبينكم ، فمنعتم فضل الله عنى بجرمانى من النبوة .

قوله تعالى : ﴿ أنزلكموها وأنتم لها كارهون ﴾ :
 أى أنكرهكم على قبولها وأنتم معرضون عنها غير متدبرين لها ، كلا إنا لا نفعل ذلك ، بل نكل أمركم
 إلى الله حتى يقضى فى أمركم ما يرى ويشاء ، وما على إلا البلاغ .
 وهذا أول نص فى دين الله على أنه لا ينبغى أن يكون الإيمان بالإكراه .

وفى هذه الآية إثبات لنبوته عليه السلام ، ورد لإنكارهم لها وتكذيبه ومن معه فيها ، وإبطال لشبهتهم
 فى أنه بشر مثلهم ، وقد فاتهم أن المساواة فى البشرية لا تقتضى استواء أفراد الجنس فى الكمالات
 والفضائل ، فالمشاهدة والتجارب تدل على التفاوت العظيم بين أفراد البشر فى العقل والفكر والرأى
 والأخلاق والأعمال ، حتى أن الواحد منهم لياتى بضروب من الإصلاح لقومه بالعلم والعمل يعجز عن
 مثلها الألوفا من الناس فى أجيال كثيرة .

قوله تعالى : ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله ﴾ :

أى لا أسألكم على نصيحتى لكم ، ودعوتكم إلى توحيد الله ، وإخلاص العبادة له إلا خيركم
 ومصلحتكم ، ولا أريد بذلك مالا فأكون متهماً فيه عندكم لمكانة حب المال من أنفسكم واعتزازكم به على
 وعلى الفقراء من أتباعى ، فما أجرى على ذلك إلا على الله الذى أرسلنى ، فهو الذى يجازينى ويشينى
 عليه .

ومثل هذه المقالة قد صدرت من جميع الأنبياء بعده فجاءت على لسان هود ، وصالح ، وشعيب ،
 ومحمد ، صلوات الله عليهم أجمعين ، كما ترى ذلك فى سورة الشعراء محكياً عنهم .

قوله تعالى : ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ :

أى ليس من شأنى ، ولا بالذى يكون منى أن أبعدهم من يؤمن بى وأنجيه عنى ، احتقاراً له على أى حال
 كانت صفته .

وفى هذا إيماء إلى الجواب عن قولهم ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾ وقد روى أنهم
 قالوا له : يا نوح إن أحببت أن تتبعك فاطرد هؤلاء ، فإنا لن نرضى أن نكون نحن وهم فى الأمر سواء .

ثم علل الامتناع من طردهم بقوله : ﴿ إنهم ملاقوا ربهم ﴾ : أى إن هؤلاء الذين تسألوننى طردهم
 صائرون إلى ربهم ، وهو سائلهم عما كانوا يعملون فى الدنيا ، ولا يسألهم عن حسيهم وشرفهم .

﴿ ولكنى أراكم قوماً تجهلون ﴾ أى تجهلون ما يمتاز به البشر بعضهم عن بعض ، من اتباع الحق
 والتحلل بالفضائل ، وعمل البر والخير ، وتظنون أن الميزة إنما تكون بالمال والجاه .

وقد جاء هذا المعنى فى قصته من سورة الشعراء ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأراذلون ﴾ قال وما علمى
 بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على رى لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين * إن أنا إلا نذير

مبين ﴿ (١)

قوله تعالى : ﴿ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم﴾ :

أى ويا قوم لا أجد أحداً يمنع عنى ما أستحقه من عقاب الله إن طردتهم بعد إيمانهم ، واتباعهم إياى فيما بلغتهم ، فإن ذلك ظلم عظيم يستحق شديد العقاب ، مهما تكن صفة من اجترحه ، كما قال فى سورة الأنعام ﴿فتطردهم فتكون من الظالمين﴾^(١).

﴿أفلا تذكرون﴾ : أى أفلا تتفكرون فيما تقولون ، وهو ظاهر الخطأ لائحته فنتهوا عنه ، فإن لهم رباً ينصرهم وينتقم لهم .

قوله تعالى : ﴿ولا أقول لكم عندى خزائن الله﴾ :

أى ولا أقول لكم بادعائى للنبوة والرسالة إن عندى خزائن رزق الله ، أتصرف فيها بغير وسائل الأسباب المسخرة لسائر الناس ، فأنفق على نفسى وعلى من تبعنى بالتصرف فيها بخوارق العادات ، بل أنا وغيرى فى الكسب سواء ، إذ ذلك ليس من موضوع الرسالة ، ولا من خصائص النبى ، ولو كان كذلك لا تبع الناس الرسل لأجلها ، بل الغاية من بعث الرسل تزكية الأنفس بمعرفة الله وعبادته ، وتأهيلها لمثوبته فى دار كرامته ورضاه عنها ، يوم لا ينفع مال ولا بنون .

﴿ولا أعلم الغيب﴾ :

فلا أمتاز عن سائر البشر بعلم مالا يصل إليه علمهم الكسبى من مصالحهم ومنافعهم ومضارهم فى معاشهم . وكسبهم ، فأخبر بها أتباعى ليفضلوا عليكم ، ومن ثم أمر الله نبيه أن يقول لقومه ﴿قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء﴾^(٢).

قوله تعالى : ﴿ولا أقول إنى ملك﴾ : من الملائكة أرسلت إليكم ، فأكون كاذباً فيما أدعى ، بل أنا بشر مثلكم أمرت بدعائكم . إلى الله ، وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم .

وفى هذا دحض لشبهتهم ، إذ زعموا أن الرسول من الله إلى البشر يجب أن يفضلهم ، ويمتاز عنهم ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بأن يكون ملكاً يعلم مالا يعلمه البشر ، ويقدر على مالا يقدر عليه بشر .

قوله تعالى : ﴿ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيمهم الله خيراً﴾ :

أى ولا أقول للذين اتبعونى وآمنوا بالله وحده . وأنتم تنظرون إليهم نظرة استصغار واحتقار ، فتزدريهم أعينكم لفقرهم ووراثته حالهم : لن يؤتيمهم الله خيراً ، وهو ما وعدوه على الإيـمان والهدى من سعادة الدنيا والآخرة .

(١) الآية ٥٢ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ١٨٨ من سورة الأعراف .

﴿ الله أعلم بما في أنفسهم ﴾ :

أى الله أعلم بما في صدورهم ، وبما آتاهم من الإيمان على بصيرة ، ومن اتباع رسوله بإخلاص وصدق سريرة ، لا كما زعمتم من اتباعهم إياى بآدى الرأى ، بلا بصيرة ولا علم .

﴿ إنى إذا لمن الظالمين ﴾ :

أى إنى إذا قضيت على سرائرهم بخلاف ما أبدته لى ألسنتهم على غير علم منى بما فى نفوسهم ، أكون ظالماً لهم بهضم حقوقهم

قوله تعالى : ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ :

أى قال قوموه له : قد حاججتنا فأكثرت جدالنا ، واستقصيت فيه ، فلم تدع حجة إلا ذكرتها حتى مللنا وسئمنا ، ولم يبق لدينا شىء نقوله ، كما قال فى سورة نوح حكاية عنه ﴿ قال رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً * فلم يزدتهم دعائى إلا فراراً ﴾^(١) أى فأتنا بما تعدنا من عذاب الله الدينوى الذى تخافه علينا ، وهو الذى أراد به بقوله ﴿ إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ إن كنت صادقاً فى دعواك أن الله يعاقبنا على عصيانه فى الدنيا . قبل عقاب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ﴾ :

أى قال لهم نوح حين استعجلوا العذاب : يا قوم إن هذا العذاب بيد الله لا أملكه ، وهو الذى يأتيكم به إن تعلقت مشيئته فى الوقت الذى تقتضيه حكمته ، ولستم بفائتيه هرباً منه إن أخره لحكمة يعلمها ، وهو واقع لا محالة متى شاء ، لأنكم فى ملكه وسلطانه ، وقدرته نافذة عليكم .

قوله تعالى : ﴿ ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ :

أى إن نصحى لكم لا ينفعكم بمجرد إرادتى له فيما أدعوكم إليه ، بل يتوقف نفعه على إرادة الله تعالى له ، وقد مضت سنته كما دلت عليه التجارب أن النصح إنما يقبله المستعد للرشاد ، ويرفضه من غلب عليه الغى والفساد ، باجتراحه أسبابه من غرور بغنى وجاه ، أو باتباع هوى وحب شهوات ، تمنع من طاعة الله تعالى .

والخلاصة : أن معنى إرادة الله إغواءهم اقتضاء سنته منهم أن يكونوا من الغاوين ، لا خلقه للغواية فيهم ابتداء ، من غير عمل منهم ، ولا كسب لأسبابها ، فإن الحوادث مرتبطة بأسبابها ، والنتائج متوقفة على مقدماتها .

قوله تعالى : ﴿ هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ :

أى هو مالك أموركم ومدبرها بحسب سنته المطردة فى الدنيا ، ولكل شىء عنده قدر ، ولكل قدر أجل ، وإليه ترجعون فى الآخرة فيجازيكم بما كنتم تعملون من خير وشر ، ولا تظلمون نقيراً .

(١) الأيتان ٥ ، ٦ من سورة نوح .

قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون ﴾

أى بل أيقول مشركو مكة إن محمداً افترى خبر قوم نوح ، فأمره الله أن يجيبهم بقوله :

﴿ قل إن افتريته فعلى إجرامى ﴾ : أى إن كنت افتريته على الله كما تزعمون فما عليكم فى ذلك من بأس ، إنما إثم ذلك وعقابه علىّ ، ومن كان يؤمن أن هذا إجرام يعاقب عليه فاعله ، فما الذى يحمله على اقتراه .

﴿ وأنا برىء مما تجرمون ﴾ :

أى كما أرى برىء من آثامكم وذنوبكم فحكم الله العدل أن يجزى كل امرئ بعمله ، كما قال سبحانه ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبشس بما كانوا يفعلون ﴾ :

أى وأوحى الله إلى نوح بعد أن استعجل قومه العذاب ، ودعا عليهم دعوته التى حكاها الله عنه ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ (١) .

أنه لن يؤمن أحد منهم فيتبعك على ما تدعوه إليه ، إلا من قد آمن من قبل ، فيظل على إيمانه ، فلا يشتد عليك البؤس والحزن بعد اليوم بما كانوا يفعلون فى السنين الطوال من العناد والإيذاء والتكذيب لك ، ولمن آمن معك ، فأرح نفسك بعد الآن من جداهم ، ومن إعراضهم واحتقارهم ، فقد آن زمن الانتقام ، وحين العذاب .

قوله تعالى : ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ :

أى واضع الفلك الذى سننجيك ومن آمن معك فيه ، وأنت محروس ومراقب برعايتنا ، أى إننا حافظوك فى كل آن فلا يمنعك من حفظنا مانع ، وملهموك ومعلموك بوحينا كيف تصنعه ، فلا يعرض لك خطأ فى صنعته ، ولا فى وصفه .

ونحو الآية قوله لموسى ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ (٢) وقوله لمحمد ﷺ ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ (٣) .

قوله تعالى ﴿ ولا تخاطبني فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ .

أى ولا تراجعنى فى شىء من أمرهم من دفع العذاب عنهم ، وطلب الرحمة لهم ، فقد حقت عليهم كلمة العذاب ، وقضى عليهم بالإغراق .

والخلاصة : لا تأخذنك بهم رافة ، ولا شفقة .

(١) الآية ٢٦ من سورة نوح . (٢) الآية ٣٩ من سورة طه . (٣) الآية ٤٨ من سورة الطور .

قوله تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفَلَكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ .

أى وشرع يصنع الفلك ، وكلما مر عليه جماعة من كبراء قومه استهزؤا به ، وضحكوا منه ، وتنادروا عليه ، ظنا منهم أنه أصيب بالهوس والجنون .

روى أنهم قالوا له : أتحولت نجاراً بعد أن كنت نبياً ، وليس ذلك بالغريب منهم ، فإنه ما من أحد يسبق أهل عصره بما فوق عقولهم من قول أو فعل إلا سخروا قبل أن يكتب له النجاح فيه .

قوله تعالى ﴿ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ .

أى قال لهم نوح مجيباً لهم عن سخريتهم ، إن تسخروا منا اليوم وتجهلونا ، لرؤيتكم مالا تتصورون له فائدة ، فإننا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ جزاء وفاقاً نَسْخَرُ مِنْكُمْ اليوم لجهلكم ، وغدا لما سيحل بكم .

﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾

أى فإن كنتم لا تعلمون اليوم فائدة ما نعمل ، وماله من عاقبة محمودة ، فسوف تعلمون بعد تمامه من يأتيه عذاب يفضحه ويجلب له العار والخزي في الدنيا وهو عذاب الغرق ، ويحل عليه عذاب دائم في الآخرة بعد ذلك ، وكل ما في الدنيا فهو هين لين بالنسبة إلى ما يكون في الآخرة لانقضائه وزواله ، وبقاء ذلك ودوامه .

قوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾

أى حتى إذا جاء وقت أمرنا بهلاكهم ، ونبع الماء من التنور ، وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها ، وكان ذلك علامة لنوح عليه السلام ، والأقرب أن يكون المراد من التنور وجه الأرض ، ويكون المعنى حتى إذا نبع الماء من وجه الأرض .

وقوله تعالى ﴿ قَلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ .

أى حتى إذا أمرنا قلنا لنوح آتخذ : احمِلْ فِي السَّفِينَةِ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانَاتِ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ذَكَرًا وَأُنْثَى ، لتبقى بعد غرق سائر الأحياء فتتناسل ، ويبقى نوعها على الأرض .

قوله تعالى ﴿ وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ﴾ :

أى واحمل فيها أهل بيتك ذكرانا وإناثا ، إلا من سبق القول بأنهم من المغرقين بسبب ظلمهم ، كما قال : ﴿ وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ واحمل من صدق واتبعت من قومك .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ منهم ، قيل إنهم كانوا ثمانية : نوحا عليه السلام وأهله وأبناءه الثلاثة وأزواجهم ، ولم يبين الله ورسوله لنا عددهم ، فحصره في عدد معين من قبيل الحدس والتخمين ، كما لم يبين لنا أنواع الحيوان التي حملها ، ولا كيف حملها وأدخلها السفينة ، وقد فصل ذلك في سفر التكوين .

وقوله تعالى ﴿ وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها ﴾ :

أى فحملهم نوح وقال : اركبوا فيها باسم الله جريانها وإرسائها ، فهو الذى يتولى ذلك بحوله وقوته ، وحفظه وعنايته ، وقد يكون المعنى أن نوحا أمرهم بأن يقولوها كما يقولها على تقدير : اركبوا فيها قائلين باسم الله ، أى بتسخيره وقدرته مجراها حين تجرى ، ومرساها حين يرسبها لا بحولنا ولا بقوتنا .

﴿ إن ربي لغفور رحيم ﴾ : أى إن ربي لواسع المغفرة لعباده حيث لم يهلكهم بذنوبهم ، بل يهلك الكافرين الظالمين منهم ، رحيم بهم إذ سخر لهم هذه السفينة لنجاة بقية الإنسان والحيوان من هذا الطوفان الذى اقتضته مشيئته .

أخرج الطبرانى وغيره عن الحسن بن على رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا : باسم الله الملك الرحمن الرحيم (باسم الله مجريها) الآية) .

﴿ قوله تعالى ﴿ وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ﴾ : أى هى تجرى بهم فى موج يشبه الجبال فى علوه وارتفاعه وامتداده ، ومن كابد ما يحدث فى البحار العظيمة من الأمواج حين ما تهبجها الرياح الشديدة ، عرف أن المبالغة فى هذا التشبيه غير بعيدة ، فإن السفينة لترى كأنها تهبط فى غور عميق كواد سحيق ، يرى البحر من جانبيه كتجبلين عظيمين يكادان يطبقان عليها ، وبعد هنية يرى أنها قد اندفعت إلى أعلى الموج كأنها فى شاهق جبل ، تريد أن تنقض منه ، والملاحون يربطون أنفسهم بالجبال على ظهرها وجوانبها ، لئلا يجرفهم ما يفيض من الموج عليها .

ثم بين أن نوحا دعتة الشفقة على ابنه فناده ، كما أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ ونادى نوح ابنه وكان فى معزل . يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ﴾ :

أى وناداه حين الركوب فى السفينة وقبل أن تجرى بهم ، وكان فى معزل بعيد عن أبيه وإخوته ومن آمن من قومه ، يا بنى اركب معنا الفلك ولا تكن مع الكافرين الذين قضى عليهم بالهلاك .

فرد ابنه عليه : ﴿ قال سأوى إلى جبل يعصمنى من الماء ﴾ أى قال : سأصير إلى جبل أتحصن به من الماء فيحفظنى من الغرق .

فأجابه نوح مبينا له خطأه : ﴿ قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المعرقين ﴾ :

أى وقال نوح لابنه لا شىء يعصم أحدا فى هذا اليوم العصيب من عذاب الله الذى قضاه على الكافرين ، فليس الأمر أمر ماء يتقى بالأسباب العادية ، وإنما هو انتقام من أشرار العباد الذين أشركوا بالله ، وظلموا أنفسهم وظلموا الناس بطغيانهم فى البلاد ، لكنه يحفظ من رحم ويعصمه ، وقد اختص بهذه الرحمة من حملهم فى السفينة ، وكان الماء قد بدأ يرتفع أثناء الحديث حتى حال بين الولد ووالده فكان من المعرقين الهالكين .

وقد وصف سبحانه هذا الطوفان في سورة القمر ، قال : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر * فدعا ربه أني مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابي ونذر ﴾^(١) .

وإنه لمنظر تشيب من هوله الولدان ، ماء ينهمر من السماء انهمارا وأرض تتفجر فتفيض ماء ثجاجا ، يصير بجرأ متلاطم الأمواج ، تغطت من تحته الأرض بجياها ووديانها ، وخفيت من فوقه السماء بكواكبها وشمسها ، وكانت عليه السفينة كما كان عرش الله على الماء في بدء التكوين .

ثم ذكر ما حدث بعد هلاكهم مبينا قدرته تعالى فقال : ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك وياسماء ألقى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ .

أى وجاء نداء من الملاء الأعلى ، خوطبت به الأرض والسماء : يا أرض ابلعي ماءك الذى عليك ، والذى تفجر من باطنك ، وياسماء كفى عن المطر ، فلم يلبث أن غاض الماء امثالاً للأمر ، وقضى الأمر بإهلاك الظالمين ، واستقرت السفينة راسية على جبل الجودي ، وقيل هلاكاً وسُحفاً للظالمين ، وبعدها لهم من رحمة الله بما كان من ظلمهم وفقدهم الاستعداد للتوبة والرجوع إلى الله عز وجل .

قوله تعالى ﴿ ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾ :

أى ونادى نوح ربه إثر ندائه لابنه الذى تخلف عن السفينة ، ودعا إليها فلم يستجب ، فقال : يارب إن ابني هذا من أهلى الذى وعدتني بنجاتهم ، إذ أمرتني بحملهم في السفينة ، وإن وعدك الحق الذى لا تخلف فيه ، وأنت خير الحاكمين بالحق ، كما قلت ﴿ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾^(٢) فحكمتك يصدر عن كمال العلم والحكمة ، فلا يعرض له الخطأ ولا الحيف والظلم .

والخلاصة : أن نوحا كان يريد أن ينجو ابنه الذى تخلف عن السفينة من الغرق بعد أن دعاه إليها ، ومن البين أن هذا الدعاء لا بد أن يكون بعد المحاوراة مع ابنه قبل أن يحول بينهما الموج .

﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ﴾ :

أى قال الله تعالى : يا نوح إنه ليس من أهلك الذين أمرتك أن تحملهم في الفلك لإنجائهم ، وقد بين سبحانه سبب ذلك بأنه ذو عمل غير صالح ، أى فهو يتنكب الصلاح ، ويلتزم الفساد .

﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علم ﴾ .

أى فلا تسألني في شيء ليس لك به علم صحيح ، وقد سمى دعاءه سؤالا ، لأنه تضمن ذكر الوعد بنجاة أهله ، وما رتبته عليه من طلب نجاة ولده .

(٢) الآية ٥٠ من سورة المائدة .

(١) الآيات ٩ - ١٦ من سورة القمر .

وفي الآية إيماء إلى أنه لا يجوز الدعاء بطلب ما هو مخالف لسنن الله في خلقه ، بإرادة قلب نظام الكون لأجل الداعي ، ولا بطلب ما هو محرم شرعا ، وإنما يجوز الدعاء بتسخير الأسباب ، والتوفيق فيها ، والهداية إلى العلم بالمجهول من السنن والنظام ، لنكثر من عمل الخير ، ونزيد من عمل البر والإحسان .

﴿ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ :

أى إني أنهاك أن تكون من زمرة من يجهلون ، فيسألونه تعالى أن يبطل حكمته وتقديره في خلقه ، إجابة لشهواتهم وأهوائهم في أنفسهم أو أهليهم أو محبيهم ، وفي ذلك دليل على أن من أكبر الجهالات أن نسأل بعض الصالحين والأولياء ما نهى الله عنه نبيا من أولى العزم من رسله ، أن يسأله إياه ، فإن ذلك يقضى بأن الله يعطيهم ما لم يعط مثله لرسله .

ثم ذكر طلب نوح المغفرة من ربه على ما فرط منه من السؤال ، حاكيا عنه : ﴿ قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾ :

أى قال نوح : رب إني أتجئ إليك وأحتجى بك من أن أسألك بعد الآن شيئا لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة ، وإن لم تغفر لي ذنب هذا السؤال الذى سولته الرحمة الأبوية ، وطمعى فى الرحمة الربانية ، وترحمنى بقبول توبتى برحمتك التى وسعت كل شىء ، أكن من الخاسرين فيما حاولته من الربح بنجاة أولادى كلهم وسعادتهم بطاعتك ، وأنت أعلم بهم منى .

والعبرة فى الآية من وجوه :

(١) إن ما سأله نوح لابنه لم يكن معصية لله تعالى خالف فيها أمره أو نهيه ، وإنما كان خطأ فى اجتهاد بنية صالحة ، وعدّ هذا ذنباً لأنه ما كان ينبغى لمثله من أرباب العلم الصحيح اللائق بمنزلته من ربه ، ومثل هذا الاجتهاد لم يُعصم منه الأنبياء ، فهم يقعون فيه أحيانا ليشعروا بحاجتهم إلى تأديب ربهم وتكميله إياهم حيناً بعد حين .

(٢) أنه لا علاقة للصلاح بالوراثة والأنساب ، بل يختلف ذلك باختلاف استعداد الأفراد ، وما يحيط بهم من البيئة والآراء والمعتقدات ، ولو كان للوراثة تأثير كبير لكان جميع أولاد آدم سواء ، ولكان سلائل أبناء نوح المؤمنين الذين نجوا معه فى السفينة كلهم مؤمنين .

إنه تعالى يجزى الناس فى الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم ، لا بأنسابهم ، ولا يحاى أحدا منهم لأجل الآباء وإن كان من الأنبياء والمرسلين .

(٤) إن من يغتر بنسبه ولا يعمل ما يرضى ربه ، ويزعم أنه أفضل من العلماء العاملين والأولياء الصالحين ، فهو جاهل بكتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

﴿ قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سمتعهم ثم إيسهم منا

عذاب أليم ﴾ :

أى قال الذى بيده ملكوت كل شىء ، ومدبر أمر العالم كله لنوح ، بعد أن انتهى الطوفان ، وأقلعت السماء عن المطر ، وابتلعت الأرض ماءها ، وصارت السكنى على الأرض والعمل عليها سهلا ممكنا : يا نوح اهبط من الجودى الذى استوت عليه السفينة ، ممتعا بسلام وتحية منا ، كما قال تعالى ﴿ سلام على نوح فى العالمين ﴾^(١) وبركات فى المعاش والأرزاق ، تفيض عليك وعلى من معك فى السفينة ، وعلى ذريات يتناسلون منهم ، ويتفرقون فى الأرض ، فيكونون أمما مستقلا بعضها من بعض ، ومنهم أمم آخرون من بعدهم ستمتعهم فى الدنيا بالأرزاق والبركات ، ولا يصيبهم لطف من ربهم ورحمة منه كما يصيب المؤمنين ، فإن الشيطان سيغويهم ويزين لهم الشرك والظلم والبغى ، ثم يمسه العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، لأنهم لا يحافظون على السلام ، بل يبغي بعضهم على بعض ، لتفرقهم واختلافهم فى هداية الدين التى بعث بها المرسلون ، ويكون جزاؤهم فى الآخرة النار وبئس القرار .

ثم ذكر لنبيه ﷺ أن هذا قصص من عالم الغيب لا يعرفه هو ولا قومه من قبل ، فقال : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ :

أى هذا القصص الذى قصصته عليك من خبر نوح وقومه من أخبار الغيب لم تشهدا حتى تعلمها ، نوحيها إليك نحن فنعرّفها تفصيلا ، وما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل الوحي الذى نزل مبينا لها ، وربما كان يعلمها هو وقومه على سبيل الإجمال .

﴿ فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ : أى فاصبر على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته ، وما تلقى من قومك من أذى كما صبر نوح على قومه ، فإن سنة الله فى رسله وأقوامهم أن تكون العاقبة بالفوز والنجاة للمتقين الذين يجتنبون المعاصى ويعملون الطاعات ، فأنتم الفائزون المفلحون ، والمصرون على عداوتكم هم الخاسرون الهالكون .

قصة هود عليه السلام

وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ إِن كُنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ يَا قَوْمِ لَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِن أَنجِي ۖ إِلَآ عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٧﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّ يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٩﴾ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِ هَارُونَ بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي

(١) الآية ٧٩ من سورة الصافات .

أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُ وَأَنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُ نِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٥﴾
 إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ
 وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا
 مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا
 رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ
 عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ الْعَادِ قَوْمٌ هُودٍ ﴿٦٠﴾

المفردات : ﴿ فطرنى ﴾ : خلقنى على الفطرة السليمة . ﴿ مدارارا ﴾ : كثيرا .
 ﴿ اعتراك ﴾ : أصابك . ﴿ آخذ ناصيتها ﴾ : المراد مسخرها ومصرفها كيف شاء . ﴿ جبار ﴾ :
 القاهر الذى يجبر غيره على اتباعه . ﴿ عنيد ﴾ : لا يدعن إلى الحق مهما كان .

قوله تعالى : ﴿ وإلى عادِ أخاهم هودا ﴾ :

أى وأرسلنا هوداً إلى قبيلة عاد ، وهى عربية وكانت تسكن الأحقاف فى شمال حضرموت ،
 وغربى عمان ، وكانت قبيلة ذات بطن ، وكانوا أصحاب زرع وضرع ، زادهم الله بسطة فى الجسم
 والمال ، وهم خلفاء قوم نوح ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة
 فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ ^(١) ، ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم
 تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام
 وبنين ﴾ ^(٢) .

أرسل اليهم أخاهم هودا ، من أوسطهم نسبا وأكرمهم بيتا ، قال لهم : يا قومى ويا أهلى اعبدوا
 الله وحده ولا تشركوا به غيره ، مالكم من إله غيره ، خلقكم ورزقكم ، وأمدكم بما تعلمون ومالا
 تعلمون ، إن أنتم إلا مفترون على الله الكذب فى اتخاذكم الشركاء والأوثان .

وكان فى قبيلة عاد مترفون ألفوا التعالى على الغير ، واستمتعوا بالنعم حتى امتلأت قلوبهم كبرا
 وبغيا وفسادا وضلالا ، وهؤلاء هم أعداء الحق دائما ، إذ يرون فى النبوة نورا يعمى أبصارهم ، ويفتح
 أذهان العامة فيأخذون حقهم ، فتكسر شوكتهم ، وتضيع دولتهم ، لذلك نرى مع كل نبي أن أول كافر
 به هم أشرف قومه ، إذ كيف يخضعون لواحد منهم بشر مثلهم ؟ !!

(٢) الآيات ١٢٨ - ١٣٣ من سورة الشعراء .

(١) الآية ٦٩ من سورة الأعراف .

قال هؤلاء : أجنثنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ إنا إذاً لفي ضلال مبين ، ما أنت إلا شخص لك غرض خاص في هذه الدعوة .

فيرد عليهم هود : يا قوم لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من عبادة الله وحده ونبد الشرك والشركاء ، لا أسألكم عليه أجرا حتى تهموني بطلب المنفعة ، وأن لي غرضا ، ما أجرى إلا على الذي خلقني على الفطرة السليمة ، وهداني إلى الحق الذي أدعو إليه ، أفلا تعقلون ما أدعوكم إليه ، وتميزون بين الحق والباطل .

ويا قوم استغفروا الله من ذنوبكم ثم توبوا إليه توبة نصوحا ، إنكم إن فعلتم ذلك يرسل المطر عليكم كثيرا ، فأنتم في حاجة إليه ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، وعزا زيادة على عزكم ، وإياكم والإعراض عن دعوتي فإن فيها الخير والفلاح .

قالوا : إنا لنراك في سفاهة وضعف عقل ، وخروج عن جادة الصواب ، وإنا لنظنك من الكاذبين .

قال هود : ليس بي سفاهة ، وكيف أكون كذلك وأنا رسول رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي ، وأنا لكم ناصح أمين .

اشتد الأمر بعد ذلك ، وقالوا : يا هود ما جئتنا بحجة قوية تدل على أنك رسول من الله ، وما نحن بتاركى ألهتنا صادرين عن قولك من تلقاء نفسك ، وما نحن لك بمؤمنين ومصدقين برسالتك ، إن نقول إلا أصابك بعض ألهتنا بسوء ، حين تعرضت لهم ، وإنك اليوم مصاب بخبل في العقل ، وجنون في الرأي .

قال هود : إني أشهد الله إني بلغت ما كلفت به ، وأشهدوا أني برىء مما تشركون به ، وإذا كان الأمر كذلك وأن ألهتكم لها قدرة على عمل ، فأجمعوا أمركم ، واجمعوا شركاءكم ، ثم كيدوني جميعا ولا تمهلون ، إني توكلت على الله ربي وربكم ، ووكلت له أمر حفظي ، وهو على كل شيء قدير ما من دابة في الأرض أو السماء إلا هو آخذ بناصيتها ، ومصرف أمرها ، ومسخرها إلى أجل مسمى ، إذ له ملك السماوات والأرض ، إن ربي على صراط مستقيم ، هو طريق الحق والعدل .

فإن تتولوا بعد هذا ، ولم تطيعوا أمرى ، فقد بلغت ما أرسلت به إليكم ، وأبرأت ذمتي من الله ، وسيستخلف ربي قوما غيركم ، ولا تضرونه شيئا ، إن ربي على كل شيء حفيظ ، وقائم ورقيب ... وهذه هي النهاية .

ولما جاء وقت أمرنا ونزول عذابنا ، نجينا هودا ومن معه من المؤمنين برحمة خاصة بهم ، لا تتعداهم إلى غيرهم ، ونجيناهم من عذاب غليظ فظيع ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر ﴾ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴿ (١) ﴾ .

(١) الآيات ١٩ ، ٢٠ من سورة القمر .

﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ * فهل ترى لهم من باقية ﴿ (١) .

وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ، وعصوا رسله أى جنس الرسل وجنس الآيات الصادقة بآية ورسول ، وهم قد اتبعوا أمر كل جبار ، يجبر غيره على اتباع رأيه ، وهم الأشراف العنيدون الذين لا يخضعون للحق مهما كان ، واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ، وطردها من رحمة الله ، ولحقت بهم من كل من وقف على خبرهم بعد ذلك لعنة .

ألا إن عادا كفروا ربهم ، وجحدوا بآياته ، وكذبوا رسله ، ألا بعدا وطردها من رحمة الله لعاد ، وهم قوم هود .

قصة صالح عليه السلام

* وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَتُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿١١﴾ قَالُوا يَصَلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لِنِ شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿١٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَمَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿١٣﴾ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدْ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنُودًا ﴿١٧﴾ كَانَتْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿١٨﴾

المفردات : ﴿ استعمركم فيها ﴾ : جعلكم تعمرونها . ﴿ مريرب ﴾ : الريب الظن والشك يقال رابني من فلان أمر يريني ريبا ، إذا استيقنت منه الريبة ، فإذا أسأت به الظن ولم تستيقن منه الريبة قلت أرابني منه فهو مريرب . ﴿ فذروها ﴾ : اتركوها . ﴿ فعقروها ﴾ : قتلوها . ﴿ الصيحة ﴾ :

المرّة الواحدة من الصوت الشديد المراد بها الصاعقة التي أحدثت رجفة في القلوب ، وصعق بها الكافرون . ﴿ جاثمين ﴾ : ساقطين على وجوههم مصعوقين ، والجثوم للطائر كالبروك للبعير . ﴿ يَعْزُوا ﴾ : يقال غنى بالمكان أقام به .

قوله تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا ﴾ :

أى ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا ، وثمرود هم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة ، وكانوا بعد عاد ، فبعث الله منهم أخاهم صالحا ، فأمرهم بعبادة الله وحده .

قال تعالى : ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ :

والتوحيد هو أصل الرسالات السماوية . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾^(٢) .

فكل الأنبياء عملوا في معسكر واحد ، هو معسكر التوحيد ، والتوحيد هو أفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا ، وكل الرسالات التي بُعث بها الرسل كان هدفها توحيد العقائد ، لا تفريق القواعد .

وكل الأنبياء بُعثوا بالإسلام ، قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾^(٣) ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾^(٤) .

ولما أمرهم صالح بعبادة الله وحده ، أقام الدليل على وحدانيته جلّ شأنه فقال : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ أى ابتداء خلقكم منها . ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾^(٥) .

قوله تعالى : ﴿ واستعمركم فيها ﴾ أى جعلكم تعمرونها ، وقد جاء ذلك المعنى مفصلا في قوله تعالى ﴿ كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون . إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٣٦ من سورة النحل .

(٣) الآية ١٩ من سورة آل عمران .

(٤) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .

(٥) الآيات ٥ - ٧ من سورة الحج .

وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتركون في ماها هنا آمين * في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعتها هضم . وتحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴿١﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ﴾ أى أسألوه المغفرة من ذنوب سلفت ، وتوبوا إليه فيما سيأتى ، إن ربي قريب مجيب ، قال رجل لرسول الله : أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه . فنزل قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فأبى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ (٢) .

وإذا رميت من الزمان بشدة وأصابك الأمر الأشق الأصب فاضرع لربك إنه أدنى لمن يدعوه من حبل الوريد وأقرب

قوله تعالى : ﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإنما لفى شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ :

أى قد كنت فينا موضع رجاء ، نستشيرك فى عظام الأمور لما لك من عقل راجح ، ولب مستنير ، أما وقد أمرتنا بما أمرتنا من ترك ما كان يعبد آباؤنا ، فقد أوقعتنا فى شك مفسد ، وظن مريب ، ينافى الطمأنينة ، ومثل هذا ما جاء فى قوله تعالى فى قصة هود : ﴿ قالوا أجبنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فإنتنا بما تعبدنا إن كنت من الصادقين ﴾ (٣) .

وهذه دعوى أهل الباطل فى كل زمان ومكان ، جدال وإنكار للحق ، وكبر وصلف ، وطيش وحمق وسفه ، قال تعالى : ﴿ وهمت كل أمة برسولهم لياخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ (٤) .

قوله تعالى : ﴿ قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير ﴾ .

لقد جاء صالح يفيض حلما ورشدا وحكمة وجلالا : يا قوم ، هكذا بلغة المشفق الناصح الأمين : أخبرونى إن كنت على بينة وبرهان قاطع ودليل ساطع فيما أدعوكم إليه من التوحيد ، وعقيدة الحق والدين الصحيح ، وآتاني الله منه رحمة فجعلنى نبيا ، فمن ذا الذى يمنع عنى عذاب الله إن عصيته وخالفت أمره ، وكنتم دعوته ، فما تزيدوننى بأقوالكم هذه إلا خسرانا مبينا ومعاذ الله أن أكون من الجاهلين الخاسرين .

قوله جل شأنه ﴿ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فإخذكم عذاب قريب ﴾ :

(٣) الآية ٧٠ من سورة الأعراف .

(١) الآيات ١٤١ - ١٤٩ من سورة الشعراء .

(٤) الآية ٥ من سورة غافر .

(٢) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

كانت الناقة معجزة وآية لصالح عندما طلبوا منه ذلك ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴾ * ما أنت إلا بشر مثلنا فأية إن كنت من الصادقين * قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم * افعقروها فأصبحوا نادمين * فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿^(١) .

وفي سورة هود أمهلهم صالح ثلاثة أيام بعد عقربها . قال تعالى : ﴿ فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ :

ذلك لأنه وعد من الله ، لقد خالفوا أمر الله فذبحوا الناقة ، قال تعالى في سورة القمر : ﴿ إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ﴾ * ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر * فنادوا أصحابهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابي ونذر * إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴿^(٢) .

وقال جل شأنه في سورة الشمس : ﴿ كذبت ثمود بطغواها * إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها ﴿^(٣) .

وفي سورة فصلت يقول تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون * ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿^(٤) . وهكذا كان العذاب : صيحة أعقبتها صاعقة ، فكان الهلاك .

قال تعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ ، كما في قوله جل شأنه : ﴿ ثم نجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا نجى المؤمنين ﴿^(٥) .

﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ أى صيحة الصاعقة ﴿ فأصبحوا في ديارهم جائئين ﴾ على وجوههم كأن لم يكونوا مقيمين بها قبل ذلك ، ﴿ ألا إن ثمود كفروا ربهم ﴾ ووجدوه ﴿ ألا بعدا ﴾ وهلاكاً ولعناً ﴿ لثمود ﴾ .

أما صالح بعد هلاكهم فقد تولى عنهم ، وقال هذه العبارة التي تسيل لها الكبد مرارة والنفس لوعة وجوى ﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ .

إنها قمة المأساة ، وإن شئت فقل إنها قمة الملهاة ، أن الناس لا يحبون الناصحين .

ولقد نصحتك إن قبلت نصيحتى والنصح أغلى ما يُباع ويوهبُ

(٤) الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة فصلت .

(٥) الآية ١٠٣ من سورة يونس .

(١) الآيات ١٥٣ - ١٥٩ من سورة الشعراء .

(٢) الآيات ٢٧ - ٣١ من سورة القمر .

(٣) الآيات ١١ - ١٥ من سورة الشمس .

إبراهيم والبشرى

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ
 حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّارَةً أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكْرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ
 إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَهُ
 إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَتُوبِلَتْنِي الدُّوَانُ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا الشَّيْءُ عَجِيبٌ
 ﴿٧٢﴾ قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
 ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجِدُ لَنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
 لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتْلُو بَرَاهِيمَ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَاتِيهِمْ
 عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

المفردات : ﴿فما لبث﴾ : أى ما أبطأ . ﴿وحنيد﴾ : أى مشوى بالرضف وهى
 الحجارة المحماة . ﴿ولا تصل إليه﴾ : أى لا تمتد للتناول . ﴿ونكره وأنكره﴾ : ضد عرفه
 ﴿وأوجس القلب فزعا﴾ : أحسَّ به ﴿ولوط﴾ : هو ذلك النبى الكريم ، وهو ابن أخى إبراهيم
 وأول من آمن به . ﴿وياويلتنا﴾ : أصلها يا ويلي : وهى كلمة تقال حين يفاجأ الإنسان أمر مهم من
 بلية أو فجيعة أو فضيحة على جهة التعجب منه أو الاستنكار له أو الشكوى منه ، ﴿والبعل﴾ : الزوج
 وجمعه بعولة ﴿وأمر الله﴾ : قدرته وحكمته ﴿وحميد﴾ : أى تحمد أفعاله . ﴿ومجيد﴾ : أى كثير
 الخير والإحسان . ﴿الروع﴾ : (بالفتح) الخوف والفرع (وبالضم) النفس . ﴿والحلِيم﴾ : الذى
 لا يحب المعالجة بعقاب ، ﴿والأواه﴾ : الكثير التأوه مما يسوء ويؤلم ، ﴿والمنيب﴾ : الذى يرجع إلى
 الله فى كل أمر ﴿وغير مردود﴾ : أى غير مدفوع ، لا بجدال ولا بشفاعة .

قوله تعالى : ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام﴾ :

وهؤلاء هم الضيف المكرمون ، الذين ورد ذكرهم فى سورة الذاريات فى قوله جل شأنه : ﴿هل
 أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون * فراغ إلى أهله
 فجاء بعجل سمين * ففر به إليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم *

فأقبلت أمراؤه في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم * قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴿١﴾ .

وهؤلاء الرسل من الملائكة المكرمين ، جاءوا ليزفوا البشرى إلى إبراهيم بمولد غلام له هو إسحاق ، كما بشره بأن إسحاق سيعيش حتى يولد له يعقوب ، وقد جاءت هذه البشرى في حال عجيبة ، فقد كانت سارة عاقرا وكان إبراهيم شيخا كبيرا .

ولما جاءت الملائكة إبراهيم قالوا سلاما ، فرد عليهم التحية قائلا : سلام ، وكان رد التحية بأحسن منها ، ذلك لأنه رد بالرفع ﴿ سلام ﴾ أى تحيتى سلام ، وهى جملة إسمية تدل على الثبوت والاستقرار ، كما يقول علماء البيان ، وكان خليل الرحمن مضيافا كريما ، فما أبطأ فى تقديم القرى وإكرام الضيف ، لقد جاءهم بعجل سمين قد شواه حتى يكون أطيب لحما ، وأحب إلى النفس .

قال تعالى : ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ لكنه فوجيء بهم لا يمدون أيديهم إليه . فأنكر حالهم . ولم يعرفهم ، وأحس منهم خيفة ، ولم يكن ذلك امتناعا منهم ، إنما تلك طبيعتهم التى جبلها الله عليهم فإن الملائكة المكرمين لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون ولا يتناسلون ، بل يسبحون الله بالليل والنهار لا يفترون ، فالتسبيح عندهم كالتنفس عندنا ، لا يوصفون بذكورة أو أنوثة ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴿٢﴾ .

قال تعالى : ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة . قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ .

وذلك كقوله تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ﴾ * قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴿٣﴾ .

فماذا حدث بعد هذا ؟

قال تعالى : ﴿ وامرأته قائمة فضحكت ﴾ عجبا لحال هؤلاء الذين يمتنعون عن تناول هذا اللحم الطيب .

وهنا جاءت البشرى من الملائكة ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ .

فما أجمل أن يبشر الإنسان بغلام له عقب .

(٣) الآيات ٣١ ، ٣٢ من سورة العنكبوت .

(١) الآيات ٢٤ - ٣٠ من سورة الذاريات .

(٢) الآيات ٢٦ - ٢٨ من سورة الأنبياء .

فماذا قالت سارة؟ قالت: ﴿ياويلنا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب﴾ .

وهذه الكلمة: ﴿ياويلنا﴾ تقال للتعجب من أمر مفاجيء، فقد عجبت على أي حال ستلد وهي العجوز، وقد بلغ زوجها سن الشيخوخة التي يبست فيها العظام، واشتعل الرأس شيبا، وأكدت هذا القول بقولها: ﴿إن هذا لشيء عجيب﴾ .

لذا جاء الرد من الملائكة: ﴿أتعجبين من أمر الله﴾ والأمر هنا أمر تقدير وإرادة نافذة. ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾^(١) فزكريا عندما قال: ﴿أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً﴾^(٢).

جاء الجواب: ﴿كذلك قال ربك هو علىّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا﴾^(٣).
ومريم عندما قالت: ﴿أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر﴾^(٤) كان الجواب: ﴿كذلك قال ربك هو علىّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً﴾ .
ثم قالت الملائكة: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ .

ثم ماذا بعد البشرى؟ لقد ذهب عن إبراهيم الروح والخوف الذى اعتراه، فإذا هو يجادل فى قوم لوط، وقد جاءت صورة تلك المجادلة فى سورة العنكبوت فى قوله تعالى: ﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية﴾^(٥) الآية.

وقد وصف الله تعالى خليله إبراهيم بقوله: ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ والحلم صفة من أجل الصفات، إذ هو الصبر عند الغضب، وإن شدة الجهالة لا تزيد الحليم إلا حلما. جاء فى الحديث الشريف ﴿كاد الحليم أن يكون نبيا﴾ كما وصفه تعالى بأنه ﴿أواه﴾ أى كثير التأوه والتوجع لما يثير ويؤلم، فهو صاحب القلب السليم والوجدان اليقظ، ذو قلب منيب، يرجع دائما إلى الله.

ثم يأتى القول الفصل فى شأن قوم لوط فيقول تعالى: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا﴾ أى عن الجدل فى قوم لوط ﴿إنه قد جاء أمر ربك﴾ أى هكذا قضى الله فى شأنهم، ولا راد لما قضى، ولا معقب لما حكم، وهو سريع الحساب، وإنهم آتتهم عذاب غير مردود أى لا مرد له من الله، ما لهم من الله من عاصم ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾^(٦).

فسبحان من بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يُجَار عليه، علا فقهر، وملك فقدر، وبطن فخبر، الوجود ملكة، والقضاء حكمته، وكل الكائنات طوع إرادته، علم فحكم، وحكم فعدل، وأراد فنفذت إرادته، وقال فصدق، وأمر فأرشد، ونهى فوجّه، هو الأول فلا شيء قبله، والآخِر فلا

(٤) الآية ٢٠ من سورة مريم.

(٥) الآية ٣١ من سورة العنكبوت.

(٦) الآية ١١ من سورة الرعد.

(١) الآية ٤٠ من سورة النحل.

(٢) الآية ٨ من سورة مريم.

(٣) الآية ٩ من سورة مريم.

شيء بعده ، الظاهر فلا شيء فوقه ، الباطن فلا شيء دونه ، وهو بكل شيء عليم ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾ (١).

قصة لوط عليه السلام

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ أَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِنَّا مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَجِيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

المفردات : ﴿ سىء بهم ﴾ : أى وقع فيما ساءه وغمه بمجيئهم . ﴿ الذرع والذراع ﴾ : منتهى الطاقة يقال مالى به ذرع ولا ذراع : أى مالى به طاقة . ويقال : ضقت بالأمر ذرعا إذا صعب عليك احتمال . ﴿ والعصيب ﴾ : الشديد الأذى ، ﴿ ويقال هُرِع وأهرع ﴾ : (بالبناء للمجهول) : إذا حُمِل على الإسراع . وقال الكسائى : لا يكون الإهرع إلا إسراعا مع رعدة من برد أو غضب أو حمى أو شهوة . ﴿ ولا تخزون ﴾ : أى لا تخجلونى . ﴿ والضيف ﴾ : يطلق على الواحد والجمع . ﴿ والرشيد ﴾ : ذو الرشد والعقل . ﴿ لو أن لى بكم قوة ﴾ : أى على الدفع بنفسى . ﴿ أو آوى إلى ركن شديد ﴾ : من أرباب العصيات القوية الذين يحمون اللاجئين ويمجرون المستجيرين . ﴿ السرى ﴾ : (بالضم) والإسراء فى الليل : كالسير بالنهار . ﴿ والقطع من الليل ﴾ : الطائفة منه . ﴿ والسجيل ﴾ : الطين المتحجر كما جاء فى الآية الأخرى ﴿ حجارة من طين ﴾ (٢) . وقال الراغب : هو حجر وطين مختلط أصله فارسى فعرب . ﴿ ومنضود ﴾ : أى وضع بعضه على بعض وأعد لعذابهم ، ﴿ ومسوومة ﴾ : أى لها سوومة (بالضم) أو علاقة خاصة فى علم ربك .

وعلى جناح السرعة انتقلت الملائكة الكرام من بيت إبراهيم الخليل إلى بيت ابن أخيه لوط وكان قد

(٢) الآية ٣٣ من سورة الذاريات .

(١) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

ابنك بقوم وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . أنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ (١)

إن الملائكة لما نزلت على لوط سئء بهم ، أى استاء لمجيئهم ، فقد نزلوا بين قوم ضاعت بينهم القيم ، واهتزت المعايير ، واختلت موازين المثل ، فأصبح المعروف بينهم منكرا ، والمنكر معروفا ، كما صار الذئب عندهم راعيا ، وأضحى الخصم العنيد بينهم قاضيا .

من أجل هذا خشى لوط عليهم من هؤلاء القوم الغلاظ الأكباد ، الجفاة الطباع ، القساة القلوب ، وضاق بهم ذرعا وطاقة ، فإنهم ضيف وللضيف واجب عند الكرام ، فكيف يؤدى واجب الضيافة بين هؤلاء الأوغاد الأندال ، لقد وصف يوم مجيئهم لديه بأنه يوم عصيب وشديد .

وما أن استقر الضيف المكرمون عنده حتى جاءه قومه يسرعون يراودونه عن ضيفه ، ومن قبل مجيئهم كانوا يعملون السيئات ، ويأتون المنكرات ، وهنا بلغ السيل الزبى ، ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، قال لوط : ﴿ يا قوم هؤلاء بناقى من أظهر لكم ﴾ يقصد بنات قومه ، فكل نبى فى قومه كالوالد الرحيم ، فاتقوا الله واحذروا عقوبته ، ولا تحزون ولا تفضحون فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد ، أى ذو رشد وعقل ينهاكم عما تفعلون .

وبكل صفاقة وخلاعة ، قالوا له : ﴿ لقد علمت مالنا فى بناتك من حق ﴾ أى أنهم لا يأتون النساء ، إنما يأتون الذكران من العالمين ، وإنك لتعلم ما نريد .

قال لهم نبى الله لوط ﴿ لو أن لى بكم قوة ﴾ أى ليتنى أملك من القوة ، ما أستطيع أن أدفعكم بها ، أو آوى إلى ركن شديد ، أو قوم ذى عصبية ، أستطيع بهم أن أكف بأسكم وأدفع شركم .

وإذا بالملائكة الكرام تقول له : ﴿ يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾

وهذا كقوله جل شأنه : ﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطا سئء بهم وضاق بهم ذرعا قالوا لا تحف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ (٢)

ولقد نفذ لوط تعليمات ربه فأسرى بأهله ليلا . وما أن جاء الصبح حتى قامت الملائكة بشن الغارة التى دمرتهم ، وقال الله فيها : ﴿ والمؤتفة أهوى فغشاها ما غشى ﴾ (٣) وقال فيها : ﴿ وإن لوطا لمن

(٣) الآيات ٥٣ ، ٥٤ من سورة النجم .

(١) الآيات ٢٨ ، ٢٩ من سورة العنكبوت .

(٢) الآيات ٣٣ ، ٣٤ من سورة العنكبوت .

المرسلين * إذ نجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزا في الغايزين * ثم دمّرنا الآخرين * وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون ﴿١﴾ .

وقال : ﴿ ولوطا آتينا حكما وعلما ونجينا من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾ ﴿٢﴾ .

وقال : ﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ﴾ ﴿٣﴾ .

وقال : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ﴾ ﴿٤﴾ .

وقال هنا في سورة هود : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ﴾ : ذلك لأنهم غيروا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فأتوا الذكران من العالمين ، وتركوا ما خلق الله لهم من أزواجهم .

﴿ وأمطرنا عليها ﴾ : أى على تلك القرى حجارة من سجيل منضود ، وهو الطين المتحجر الذى تتابع حتى قضى عليهم قضاء مبرما ، هذه الحجارة كانت مسومة عند ربك (أى معلمة) ، ما أخطأت واحدة منها صاحبها الذى سيموت بها ، وليس هذا الانتقام مقصورا على قوم لوط ، إنما هو ممتد حتى يصل إلى كل ظالم وطاغية .

قال تعالى : ﴿ وماهى من الظالمين ببعيد ﴾ : إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم ، إن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، اقرعوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ ﴿٥﴾ .

وهكذا أرخى الستار على تلك المأساة البشرية ، التى انخرقت عن طريق الجادة ، فصاروا عن الصراط ناكبين . ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ ﴿٦﴾ .

قصة شعيب عليه السلام

* وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ بِهُ
وَيَنْقُومُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْثَالَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي

(٤) الآيات ٣٧ - ٣٩ من سورة القمر .

(٥) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٦) الآية ٦٣ من سورة النور .

(١) الآيات ١٣٣ - ١٣٨ من سورة الصافات .

(٢) الآية ٧٤ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٤٠ من سورة الفرقان .

٨٥) بَقِيَتْ أَللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ٨٦)
 قَالُوا يَشْعِبُ أَصْلُوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا
 مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ٨٧) قَالَ يَنْقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي
 وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَنكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
 مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ٨٨) وَيَنْقُومُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ
 شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ
 لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ٨٩) وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ٩٠) قَالُوا
 يَشْعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ
 وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ٩١) قَالَ يَنْقُومُ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ
 ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ٩٢) وَيَنْقُومُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ
 تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ٩٣) وَلَمَّا
 جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ
 فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنَّمِينَ ٩٤) كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعَدَتْ نُمُودٌ ٩٥)

المفردات : ﴿ بخير ﴾ : بثروة واسعة في الرزق . ﴿ تبخسوا ﴾ : تنقصوا الأشياء أو
 تعيىوها . ﴿ تعثوا ﴾ : تفسدوا والمراد لا تفسدوا في الأرض قاصدين الفساد . ﴿ الحليم ﴾ : ذو الأناة
 والتروي الذي لا يتعجل بأمر قبل الثقة من فائدته . ﴿ والرشيد ﴾ : الذي لا يأمر إلا بما استبان له من
 الخير والرشد . ﴿ والمخالفة ﴾ : أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر في قوله أو فعله أو حاله ،
 يقال خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت موافقه ، وخالفني عنه إذا ولى عنه وأنت قاصد له .
 ﴿ وأناب إلى الله ﴾ : رجع إليه . ﴿ وجرم الذنب أو المال ﴾ : كسبه . ﴿ ورحيم ﴾ : عظيم الرحمة
 للمستغفرين . ﴿ ودود ﴾ : كثير اللطف والإحسان إليهم . ﴿ الفقه ﴾ : الفهم الدقيق المؤثر في النفس
 الباعث على العمل . ﴿ والرهط ﴾ : الجماعة من الثلاثة إلى السبعة أو العشرة . ﴿ لرجمناك ﴾ : لقتلناك

بالرمي بالحجارة . ﴿ بعزیز ﴾ : أى ذى عزة ومنعة . ﴿ واتخذہ ظهريا ﴾ (بالكسر والتشديد) أى جعله نسيا منسيا لا يذكر كأنه غير موجود . ﴿ ومحيط ﴾ : أى محص ما تعملون . ﴿ وعلى مكانتكم ﴾ : على غاية تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ، يقال مكن مكانه : إذا تمكن أبلغ تمكن . ﴿ وارقبوا ﴾ : أى وانتظروا . ﴿ والصيحة ﴾ : أى صيحة العذاب . ﴿ وجاثمين ﴾ : أى باركين على ركبهم مكبين على وجوههم . ﴿ وغنى بالمكان ﴾ : أقام به . ﴿ وبعدا ﴾ : أى هلاكا لهم .

وأرسلنا إلى قبيلة مدين ، وكانت تسكن الحجاز مما يلي الشام ، وكانوا فى غنى وسعة ، إلا أنهم طففوا الكيل ونقصوا الوزن ، وعاثوا فى الأرض الفساد ، أرسلنا لهم شعبيا من أوسطهم نسباً ، وأعلامهم خلقا ، قال لهم : يا قومى ويا أهلى (وهذا مما يدعو إلى الإجابة والقبول) اعبدوا الله وحده ، لا تشركوا به شيئاً ، مالكم إله غيره يتصف بما اتصف به الله جل شأنه حتى يعبد .

ألست معى فى أن الرسل جميعا متفقون فى طلب عبادة الله وحده ، أما الأمور العملية فكل يعالج ناحية الضعف فى أمته ، ولذا قال شعيب : يا قومى اعبدوا الله ولا تنقصوا الكيل والميزان فيما تبيعون ، وكانوا ﴿ إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾ * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴿ أى ينقصون ﴾ . أنهم مبعوثون ﴿^(١) ومحاسبون .

امتثلوا الأمر ، واجتنبوا النهى ، لأنى أراكم بخير وعافية ، وغنى وسعة ، وهذا يدعو إلى شكر الله وامتنال أمره ، ولأنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط عذابه لكم ، إذا أنتم أصررتم على العصيان . ﴿ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ﴾ والعدل وهذا أمر بالواجب بعد النهى عن ضده لتأكيد ، وتبينها على أنه لا بد منهما قصدا .

﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ فى كيل أو وزن ، أو عد فى حق حسى أو معنوى ، ولا تعيبوا شيئاً لا يستحق العيب ولا تفسدوا فى الأرض بأى نوع من الفساد حالة كونكم قاصدين له .

واعلموا أن ما يقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة ، وأحمد عاقبة مما تبتغونه لأنفسكم من تطفيف فى الكيل ، أو نقص فى الوزن ، وصدق الله ﴿ بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ ورقب ، إن على إلا البلاغ ، وعلى الله الحساب .

﴿ قالوا يا شعيب أصلاتك ﴾ تقتضى بتأثيرها فىك أن تحملنا على ترك ما كان يعبد آباؤنا من أصنام ، نتخذهم قربنى إلى الله ، ولست أنت خيراً منهم حتى نتركهم ونتبعك . والاستفهام فى الآية للإنكار والسخرية بشعيب ﴿ أصلاتك تأمرك أن نترك ﴾ ما نفعله فى أموالنا من تنمية واستغلال على حسب نشاطنا واجتهادنا ، أليس هذا حجراً على حريتنا ، وحداً لنشاطنا ؟

إنك يا شعيب لأنت الحليم ، المتأنى في حكمه ، العاقل المتروى ، والرشيد الذي لا يأمر إلا بما استبان له فيه وجه الخير والرشاد ، وهذا التأكيد الكثير في كلامهم يفيد الاستهزاء والتعريض به .

انظروا إلى رد شعيب عليهم في هذه الاتهامات :

﴿ يا قوم ﴾ ويا أهلى أخبرونى ماذا أفعل معكم ومع نفسى ، إن كنت على يقين تام ، وحجة واضحة من ربى ، تفيد أن ما أمركم به هو من عند الله لا من عند نفسى ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وقد رزقنى من فضله وخيره رزقا حسنا كثيرا ، حصل لى من طريق الكسب الحلال ، فأنا رجل ملىء ، وخبير بما ينمى المال .

أخبرونى ماذا أفعل ؟ وماذا أقول لكم غير الذى قلت ؟

﴿ وما أريد أن أخالفكم ﴾ مائلا إلى ما نهيتكم عنه ، بل أنا متمسك به قبلكم ، لأنى أرى فيه الخير والرشاد فى الدنيا والآخرة ، وأنا ما أريد إلا الإصلاح والخير العام لى ولكم ما استطعت ، إلى ذلك سبيلا ، ليس لى فيما أفعل غرض خاص .

ومن هنا نأخذ أن العاقل يجب أن يكون عمله مراعى فيه حق الله ورسوله ، وحق نفسه ، وحق الناس عليه .

﴿ وما توفيقى ﴾ وهدايتى إلى الخير إلا بالله وحده ، عليه توكلت وإليه أنيب ، إذ هو المرجع والمآب ، والنافع والضار ، لا أرجو منكم خيرا ، ولا أخاف ضرا .

ويا قوم لا يحملنكم شقاق وخلافى معكم فى رأى والعقيدة على العمل الضار ، الذى يترتب عليه أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح بالغرق ، أو قوم هود بالريح العاتية ، أو قوم صالح بالصيحة الطاغية ، وما عذاب قوم لوط منكم ببعيد ، زمانا ولا مكانا ولا إجراما .

﴿ واستغفروا ربكم ﴾ من ذنوبكم ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ واعملوا صالحا من الأعمال ، إن رى وربكم عظيم الرحمة ، كثير المودة ، فإنكم إن فعلتم ذلك يمتعكم متاعا حسنا فى الدنيا والآخرة .

قالوا يا شعيب : ما نفهم كثيرا مما تقول فهما عميقا ، ولا نفهم له معنى ولا حكمة ، وإننا لنراك فىنا ضعيفا ، لا حول لك ولا قوة ، فكيف يقبل منك هذا الذى يوصلك إلى الرياسة فى الدين والدنيا ، على أنا لو أردنا البطش بك لما منعنا مانع ، ولولا عشيرتك الأقربون لفتكنا بك فتكاً يتناسب مع عملك معنا ، ومن ذم آهتنا ، وطلبك الحجر علينا فى تصرفنا ، أى نقتلك رميا بالحجارة ، ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ .

﴿ قال يا قومى أرهطى ﴾ وأسرتى أعز وأكرم عليكم من الله الذى أدعوكم إليه ، وأشركتم به ،

وجعلتم مراقبته والخوف منه وأمره ونهيه وراءكم ظهريا ، كالأمر الذى يهون على صاحبه فينساه ولا يحسب له حسابا ﴿ إن ربي بما تعملون محيط ﴾ علماً فسيجازيكم على عملكم .

ويا قوم اعملوا ما استطعتم على منتهى إمكانكم فى قوتكم ، إني عامل على مكانتى وحالتى ، وغدا سوف تعلمون الذى يأتية عذاب يخزيه ويذله فى الدنيا والآخرة ، ومن هو كاذب فى قوله ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾^(١) .

وانظروا مراقبين من سيقع عليه العذاب ، إني معكم من المنتظرين ، وهذا الأمر ﴿ اعملوا وارقبوا ﴾ للتهديد والوعيد من واثق بقوته وبربه .

﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ وحانت ساعة التنفيذ ﴿ نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة ﴾ خاصة بهم وما ذلك على الله بعزيز ﴿ وأخذت الذين ظلموا الصيحة ﴾ التى أخذت ثمود فأصبحوا جاثمين ، وجوههم منكبة على الأرض كالطير الجاثمة ، وأصبحت ديارهم خاوية على عروشها ، كأنهم لم يقيموا فيها وقتا من الأوقات ، ألا بعدا وهلاكاً لمدين كما بعدت وهلكت ثمود .

موسى وفرعون

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوهُ أَمْرٌ فِرْعَوْنِ
وَمَا أَمْرٌ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ
الْمُرْوَدُ ﴿٩٨﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

المفردات : ﴿ سلطان مبین ﴾ : المراد حجة قوية ظاهرة ، وقيل هى العصا . ﴿ يقدم ﴾ : أى يتقدم يقول قدمهم يقدمهم إذا تقدمهم . ﴿ فأوردهم النار ﴾ : أدخلهم فيها . ﴿ الرفد المرفود ﴾ : المراد بئس العطاء المعطى لهم وقيل الرفد القدح والرفد مافى القدح من الشرب ، والمراد بئس ما يسقونه فى النار عندما يردونها .

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ التسع المفصلة فى غير هذه السورة ، وأرسلناه بحجة قوية كقوة السلطان ، ظاهرة لا غموض فيها ، وهى محاورته مع فرعون ، وقيل هى عصاه ، أرسلناه إلى فرعون وملئه وهم أشراف قومه ، وقادة شعبه ، ومستشاروه فى الرأى ، وأما بقية الشعب فتابع لهم ، وسائر وراءهم بدون تفكير ، فاتبع الأشراف أمر فرعون ، ونفذوه حرفيا فى الكفر بموسى ، وإحضار السحرة ، وقتلهم لمن آمنوا ، وما أمر فرعون برشيد أبداً ، بل هو الغواية والضلال ، والشر والفساد .

(١) الآية ٨٨ من سورة الأعراف .

وهذا فرعون كبير قومه وقائدهم إلى الشر في الدنيا ، يتقدمهم يوم القيامة إلى النار ، فيدخلون فيها جميعا ، وبغس الورد المورود الذي دخلوه وهو جهنم ، وذلك لأن وارد الماء يرده للتبريد ، ولذة الشرب ، ووارد النار يحترق بلهيبها ويتلظى بنارها .

﴿ وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة ﴾ هم من المقبوحين ، ويوم القيامة يسقون ماء حميما يقطع الأمعاء ، مع اللعنة عليهم في الدنيا والآخرة ، وبغس هذا العطاء المعطى لهم ، جزاء ما قدموا من سيء الأعمال .

العبرة والعظة من القصص بعذاب الدنيا

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٦﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠٧﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٨﴾

المفردات : ﴿ تتبيب ﴾ : مأخوذ من التباب أى الخسران والهلاك يقال تب فلان وتبت يده ، أى خسر وهلك .

ذلك الذى ذكرنا بعض أنباء القرى التى ظلمت نفسها ، وعصيت رسلها ، نقصه عليك للعبرة والعظة ، ولمعان آخر ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه من القرى . والله بقايا آثار باقية ، كالزرع القائم ، ومنها ما عفى ودرس حتى لم يعد له أثر كالزرع المحصود ، وما ظلمناهم فى شيء أبدا ، بل أرسلنا لهم الرسل هدايتهم وتنوير بصائرهم ، ولكنهم ظلموا وبغوا وما ازدادوا إلا فجورا وضلالا ، أنذرتهم رسلهم بالعذاب فتماروا بالنذر ، واتكلوا على آلهتهم فى دفع العذاب عنهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم شيئا لما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير هلاك وضلال ، فإنهم باتكاهم عليهم إزدادوا كفرا وإصرارا ، وظلما وضلالا .

ومثل ذلك الأخذ بالعذاب والنكال أخذ ربك إذا أخذ القرى فى حال تلبسها بالظلم فى كل زمان ومكان ، إن أخذه أليم شديد موجه قاس ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ، فهل من مذكر .

يا كفار قريش : لستم بأقوى منهم ، وأشد بأسا ، وليس رسولكم بأقل من إخوانه الرسل : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (١)

(١) الآية ٩ من سورة الروم .

العبرة العامة في هذا القصص بعذاب الآخرة

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٢﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ * وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ ﴿١٠٨﴾

المفردات : ﴿ شقى ﴾ : الشقى من استحق النار لإساءته . ﴿ سعيد ﴾ : من استحق الجنة لعمله بعد فضل الله ورحمته . ﴿ الزفير ﴾ : إخراج النفس . ﴿ الشهيق ﴾ : رده مع السرعة والجهد . ﴿ مجذوذ ﴾ : مقطوع مأخوذ من جذه يجذّه إذا قطعه أو كسره .
قوله تعالى ﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ :

يخبر تعالى بأن في إهلاكنا الكافرين ، وإنجائنا المؤمنين ، لآية أى عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾ أى أولهم وآخرهم ، كقوله : ﴿ وحشرناهم فلم تغادر منهم أحدا ﴾ (٣) .

﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ أى عظيم ، تحضره الملائكة ويجتمع فيه الرسل ، وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطيور والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة ، إن تك حسنة نضاعفها .

وقوله ﴿ وما تؤخره إلا لأجل معدود ﴾ أى ما تؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناس معدودين من ذرية آدم ، وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة .

(٣) الآية ٤٧ من سورة الكهف .

(٢) الآية ١٣ من سورة إبراهيم .

(١) الآية ٥١ من سورة غافر .

ولهذا قال ﴿ وما تؤخره إلا لأجل معدود ﴾ : أى لمدة مؤقتة لا يزداد عليها ولا ينتقص منها .
 ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ : أى يوم يأتى يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله ،
 كقوله : ﴿ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾^(١) وقال ﴿ وخشعت الأصوات
 للرحمن ﴾^(٢) .

وفى الصحيحين فى حديث الشفاعة : (ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ اللهم
 سلم سلم)^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فمنهم شقى وسعيد ﴾ أى فمن أهل الجمع شقى ، ومنهم سعيد ، كما قال :
 ﴿ فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴾^(٤) .

عن ابن عمر عن عمر قال : لما نزلت ﴿ فمنهم شقى وسعيد ﴾ سألت النبى ﷺ فقلت
 يارسول الله: علام نعمل ؟ على شىء قد فرغ منه أم على شىء لم يفرغ منه ؟ فقال : (على شىء قد فرغ
 منه ياعمر وجرت به الأقلام ولكن كل ميسر لما خلق له)^(٥) .

ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال :

﴿ فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق * خالدين فيها ما دامت السموات والأرض
 إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد ﴾ :

يقول تعالى : ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ قال ابن عباس : الزفير فى الحلق ، والشهيق فى الصدر ،
 أى تنفسهم زفير ، وأخذهم النفس شهيق ، لما هم فيه من العذاب ، عياذا بالله من ذلك .

﴿ خالدين فيها مادامت السموات والأرض ﴾ : قال الإمام أبو جعفر بن جرير : من عادة
 العرب ، إذا أرادت أن تصف الشىء بالدوام أبداً ، قالت هذا دائم دوام السموات والأرض ، وكذلك
 يقولون هو باق ، ما اختلف الليل والنهار ، يعنون بذلك كله أبداً . فخطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم
 فقال : ﴿ خالدين فيها مادامت السموات والأرض ﴾ .

وعن ابن عباس قوله : ﴿ مادامت السموات والأرض ﴾ قال : لكل جنة سماء وأرض .
 وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : مادامت الأرض أرضاً ، والسماء سماء .

(١) الآية ٣٨ من سورة النبأ .

(٢) الآية ١٠٨ من سورة طه .

(٣) أخرجه البخارى فى الأذان (١٢٩) وفى التوحيد (٢٤) . ومسلم فى الإيمان (٢٩٩) .

(٤) الآية ٧ من سورة الشورى .

(٥) أخرجه البخارى فى التفسير (سورة : ٩٢ : ٧) وفى القدر (٢) وفى التوحيد (٥٤) . ومسلم فى القدر (٧ ، ٩) . وأبو داود فى

السنة (١٦) . والترمذى فى القدر (٣) . وابن ماجه فى المقدمة (١٠) وفى التجارات (٢) . والإمام أحمد فى (١ : ٦) وفى (٤ :

وقوله ﴿إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد﴾ كقوله : ﴿النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾^(١) .

وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء ، على أقوال كثيرة ، حكاهما الشيخ أبو الفرج بن الجوزى في كتابه (زاد المسير) وغيره من علماء التفسير ، ونقل كثيرا منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله في كتابه .

وعن ابن عباس والحسن أيضا : أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ، ممن يجرهم الله من النار بشفاعاة الشافعين من الملائكة والنبیین والمؤمنين ، حتى يشفعوا في أصحاب الكبائر ، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيرا قط ، وقال يوما من الدهر : (لا إله إلا الله) كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك ، من حديث أنس وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة ، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ، ولا محيد له عنها ، وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديما وحديثا في تفسير هذه الآية الكريمة .

قوله تعالى : ﴿وأما الذين سئدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾ :

يقول تعالى : ﴿وأما الذين سعدوا﴾ وهم أتباع الرسل ﴿ففي الجنة﴾ أى فمأواهم الجنة ﴿خالدین فيها﴾ أى ما كثرین فيها أبدا ﴿ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾ .

معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرا واجبا بذاته ، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى ، فله المنة عليهم دائما ، ولهذا يلهمون التسييح والتحميد كما يلهمون النفس . وقال الضحاك والحسن البصرى : هى فى حق عصاة الموحدين الذين كانوا فى النار ، ثم أخرجوا منها ، وعقب ذلك بقوله ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ أى غير مقطوع قاله مجاهد ، وابن عباس ، وغير واحد ، لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاع أو لبس أو شيء ، بل حتم له بالدوام وعدم الانقطاع كما بين هناك أن عذاب أهل النار فى النار دائما مردود إلى مشيئته ، وأنه بعدله وحكمته عذبهم .

ولهذا قال : ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾ كما قال ﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون﴾^(٢) .

وهنا طيب القلوب . وثبت المقصود بقوله : ﴿عطاء غير مجذوذ﴾

وقد جاز فى الصحيحين : [يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت]^(٣) .

وفى الصحيح أيضا ﴿فيقال يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا

(١) الآية ١٢٨ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٢٣ من سورة الأنبياء .

(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق (٥٠) وفى التفسير (سورة ١٩ : ١) . ومسلم فى الجنة (٤٠) . والترمذى فى الجنة (٢٠) . والدرامى فى

الرقاق (٩٠) . والإمام أحمد فى (٢ : ١١٨) وفى (٣ : ٩ ، ٣٣٠) .

تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا ﴿١٠٩﴾ .

توجيهات وإرشادات

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمُ
نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١١٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ
مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١١﴾ وَإِنْ كَلَّمَا لِيُوقِنَهُمْ رَبُّكَ
أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١٢﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٣﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ
مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٤﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِذِ الْحَسَنَاتِ
يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ ﴿١١٥﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٦﴾
فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا
مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٧﴾ وَمَا كَانَ
رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً
وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٩﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٠﴾ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ
مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٣﴾
وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ
بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٤﴾

(١) أخرجه مسلم في الجنة (٢٢) . والترمذى في التفسير (سورة ٣٩ : ١٠٠) والدرامى في الرقاق (١٠٣) . والامام أحمد في (٢ : ٣١٩) وفي (٣ : ٣٨ ، ٩٥) .

المفردات : ﴿ طرف الشيء ﴾ : الطائفة منه والنهاية . ﴿ فطرفا النهار ﴾ : الغدو والعشى وروى عن الحسن وقتادة والضحاك : أنهما صلاة الصبح والعصر . ﴿ والزلف ﴾ : واحدها زلفة وهي الطائفة من أول الليل لقربها من النهار وقال الحسن : هما زلفتان صلاة المغرب وصلاة العشاء . ﴿ وذكرى ﴾ : عبرة وعظة . ﴿ للذاكرين ﴾ : أى المعتبرين المتعظين . ﴿ لولا ﴾ : كلمة تفيد التخصيص والحث على الفعل . ﴿ القرون ﴾ : واحدهم قرن وهو الجيل من الناس قيل هو ثمانون سنة وقيل سبعون سنة وشاع تقديره بمائة سنة . ﴿ والبقية ﴾ : ما يبقى من الشيء بعد ذهاب أكثره واستعمل كثيرا فى الأنفع والأصلح لأن العادة قد جرت بأن الناس ينفقون أرباباً ما عندهم ، ويستبقون الأجود ، ويقال أترفه النعمة ، أى أبطرته وأفسدته . ﴿ وكلمة ربك ﴾ : أى قضاؤه وأمره . ﴿ القص ﴾ : تتبع أثر الشيء للإحاطة به كما قال تعالى ﴿ وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ﴾ (١) .

﴿ والنبأ ﴾ : الخير الهام . ﴿ ونثب ﴾ : أى تقوى ونجعل فؤادك راسخا كالجيل . ﴿ على مكانتكم ﴾ : أى على تمكنتكم واستطاعتكم .

قوله تعالى : ﴿ فلاتك فى مربة مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنما لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ :

أى فلاتك فى شك مما يعبد هؤلاء المشركون ، إنه باطل وجهل وضلال ، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل ، أى ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء فى الجهالات وسجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء ، فيعذبهم عذاباً أليماً لا يعذبه أحداً ، وإن كان لهم حسنات فقد وقاهم الله إياها فى الدنيا قبل الآخرة .

قال سفيان الثورى : عن جابر الجعفى عن مجاهد عن ابن عباس ﴿ وإنما لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ قال : ما وعدوا من خير أو شر .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص .

ثم قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب ﴾ .

يذكر سبحانه وتعالى أنه أتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه ، فمن مؤمن به ومن كافر به ، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة ، فلا يغيبنك تكذيبهم لك ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ﴾

قال ابن جرير : لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم ، لقضى الله بينهم ، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحججة عليه ، وإرسال الرسول إليه ، كما قال تعالى :

﴿ وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا ﴾^(١) فإنه قد قال في الآية الأخرى ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى فاصبر على ما يقولون ﴾^(٢) . ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين و الآخرين من الأمم و يجزيهم بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

فقال : ﴿ وإن كلالا ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير ﴾ .

أى علم بأعمالهم جميعها جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها . وفي هذه الآية قراءات كثيرة يرجع معناها إلى هذا المعنى ، كما في قوله تعالى : ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾^(٣) .

قوله تعالى ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ﴾ :

يأمر الله تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ، ومخالفة الأضداد ، ونهى عن الطغيان وهو البغى ، فإنه مصرعه ، حتى ولو كان على مشرك ، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد ، لا يغفل عن شيء ، ولا يخفى عليه شيء .

قوله تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ :

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : لا تداهنوا .

وقال العوفي عن ابن عباس : هو الركون إلى الشرك .

وقال أبو العالية : لا ترضوا بأعمالهم .

وقال ابن جرير عن ابن عباس : ولا تميلوا إلى الذين ظلموا . وهذا القول حسن ، أى لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم ﴿ فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ أى ليس لكم من دون الله من ولى ينقذكم ، ولا ناصر يخلصكم من عذابه .

قوله تعالى : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ * واصر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴿

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار ﴾ قال : يعنى الصبح والمغرب . ﴿ وزلفا من الليل ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسين وغيرهم : يعنى صلاة العشاء .

وقوله ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ يقول : إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب قال : كنت إذا سمعت من رسول الله حديثا فنفعنى الله بما شاء أن ينفعنى منه وإذا حدثنى عنه أحد أستحلفته فإذا

(١) الآية ١٥ من سورة الأسراء . (٢) الآية ١٢٩ من سورة طه . (٣) الآية ٣٢ من سورة يس .

حلف لي صدقته ، وحدثني أبو بكر- وصدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له) (١) .

وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان : أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال : هكذا رأيت رسول الله يتوضأ وقال : (من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه) (٢) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن الحارث مولى عثمان يقول : جلس عثمان يوماً وجلسنا معه فجاءه المؤذن فدعا عثمان بماء في إناء - أظنه سيكون فيه قدر فتوضأ ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا ثم قال (من توضأ وضوئي هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما بينه وبين صلاة الصبح ثم صلى العصر غفر له ما بينه وبين صلاة الظهر ثم صلى المغرب غفر له ما بينه وبين صلاة العصر ثم صلى العشاء غفر له ما بينه وبين صلاة المغرب ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء وهن الحسنات يذهبن السيئات) (٣) .

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : (أرأيتم لو أن بياب أحدكم نهراً غمراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يا رسول الله قال (كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا) (٤) .

وقال مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر) (٥) .

وروى الإمام أحمد عن أبي أيوب الأنصاري عن رسول الله ﷺ كان يقول : (إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة) .

وقال أبو جعفر بن جرير عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ (جعلت الصلوات كفارات لما بينهن) فإن الله قال ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ .

(١) أخرجه أبو داود في الوتر (٢٦) . والترمذي في الصلاة (١٨١) وفي التفسير (سورة ٣ : ١٤) . وابن ماجه في الإقامة (١٩٣) . والامام أحمد في (١ : ٢ ، ٩ ، ١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٤ ، ٢٨) وفي الصوم (٢٧) . ومسلم في الطهارة (٣ ، ٤) . وأبو داود في الطهارة (٥١) . والنسائي في الطهارة (٢٧ ، ٦٨ ، ٩٣) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في (٣ : ٤٩٥) .

(٤) أخرجه البخاري في المواقيت (٦) . ومسلم في المساجد (٢٨٣ ، ٢٨٤) . والترمذي في الأدب (٨٠) . والنسائي في الصلاة (٧) . وابن ماجه في الإقامة (١٩٣) . والدرامي في الصلاة (١) . والإمام مالك في السفر (٩١) . والإمام أحمد في (١ : ٧٢ ، ١٧٧) وفي

(٢ : ٣٧٩ ، ٤٢٧ ، ٤٤١) .

(٥) أخرجه مسلم في الطهارة (١٦) . والامام أحمد في (٢ : ٣٥٩ ، ٤٠٠ ، ٤١٤) .

وقال البخارى عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبله فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ فقال الرجل : يا رسول الله ألى هذا ؟ قال : (لجميع أمتي كلهم) هكذا رواه في كتاب الصلاة .

وروى الإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير عن ابن مسعود قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شيء غير أني لم أجتمعها قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك . فافعل بي ما شئت ، فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً فذهب الرجل ، فقال عمر : لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه . فأتبعه رسول الله ﷺ بصره ثم قال (ردوه على) فردوه عليه فقرأ عليه ﴿ أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ فقال معاذ وفي رواية عمر يا رسول الله الله وحده أم للناس كافة ؟ فقال (بل للناس كافة) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ (إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذي نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ، قال : قلنا : وما بوائقه يأنى الله ؟ قال (غشه وظلمه ولا يكسب عبد مالا حراماً فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار إن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن إن الخبيث لا يمحو الخبيث) (١) .

وقال ابن جرير : كان فلان بن معتب رجلاً من الأنصار فقال : يا رسول الله دخلت على امرأة فملت منها ما ينال الرجل من أهله إلا أني لم أواقعها ، فلم يدر رسول الله ما يبجيه ، حتى نزلت هذه الآية ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ فدعا رسول الله فقرأها عليه .

وعن معاذ بن جبل أنه كان قاعداً عند النبي ﷺ فجاء رجل فقال : يا رسول الله ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له فلم يدع شيئاً يصيبه الرجل من امرأته إلا قد أصاب منها غير أنه لم يجتمعها ؟ فقال له النبي ﷺ (توضأ وضوءاً حسناً ثم قم فصل) فأنزل الله عز وجل هذه الآية يعنى قوله ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ فقال معاذ : أهي له خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال : (بل للمسلمين عامة) .

وقال ابن جرير عن سليم بن عامر أنه سمع أبا أمامة يقول : إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أقم في حد الله (مرة أو اثنتين) فأعرض عنه رسول الله ثم أقيمت الصلاة ، فما فرغ النبي ﷺ من الصلاة قال : (أين هذا الرجل القائل أقم في حد الله) قال أنا ذاقال أتممت الوضوء وصليت معنا آنفاً ؟ قال : نعم ، قال : (فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد) وأنزل الله على رسول الله ﷺ ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ .

وقال الإمام أحمد بن علي بن زيد عن أبي عثمان قال : كنت مع سلمان الفارسي تحت شجرة ، فأخذ منها غصنا يابساً فهزه حتى تحات ورقه ، ثم قال : أبا عثمان ألا تسألني لم أفعل هذا ؟ قلت : ولم تفعله ؟ قال : هكذا فعل رسول الله ﷺ فقال : (إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحات خطاياها كما يتحات هذا الورق)^(١) وقال : ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ .

وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حبيب عن ميمون بن أبي شبيب عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)^(٢) .
وقال أحمد عن أبي ذر قال قلت لرسول الله أوصني ، قال (إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها) قال قلت لرسول الله : أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال هي أفضل الحسنات) .
وقال الحافظ الموصلي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ (ما قال عبد لا إله إلا الله في ساعة من ليل أو نهار إلا طلست ما في الصحيفة من السيئات حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات) .
قوله تعالى : ﴿ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

الصبر هو مقاومة النفس الهوى لئلا تنقاد إلى القبائح ، كما أنه ثبات باعث الدين في مقابل باعث الشهوات ، لئلا يتردى في الرذائل ، وقد يكون الصبر نفسياً ومادياً ، وقد جعل الله ثواب الصابرين بغير حساب فقال ﴿ إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾^(٣) .

ولما قال إخوة يوسف له : ﴿ أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾^(٤) .

فبالتقوى والصبر انتقل يوسف من غيابة الجب إلى غاية الجب ، ومن النوم على الحصيرة إلى التربع على عرش مصر .

وبالتقوى والصبر قال له إخوته : ﴿ لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾^(٥) وبالتقوى والصبر قال لهم ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾^(٦) وبالتقوى والصبر قال يوسف بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وأحقني بالصالحين ﴾^(٧) .

فاللهم إنا نسألك صبراً عند البلاء ، وشكراً عند الرخاء ، ورضاً بمر القضاء .

(١) أخرجه الامام أحمد في (٤ : ٧٠) وفي (٥ : ٤٣٧ ، ٤٣٩) . والدرامي في الوضوء (٤٥) .

(٢) أخرجه الترمذى في البر (٥٥) . والدرامى في الرقاق (٤٧) . والامام أحمد في (٣ : ٥) وى (٥ : ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٧٧ ، ٢٢٨ ،

(٥) الآية ٩١ من سورة يوسف . (٢٣٦) .

(٣) الآية ٣٠ من سورة الزمر .

(٤) الآية ٩٠ من سورة يوسف .

(٥) الآية ١٠١ من سورة يوسف .

قوله تعالى : ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ﴾ .

يقول تعالى : فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد فى الأرض ، وقوله : ﴿ إلا قليلا ﴾ أى قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيرا ، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نعمته ، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

كما قال تعالى ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ ^(١) .

وفى الحديث : (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب) ^(٢) .

ولهذا قال تعالى ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض

إلا قليلا ممن أنجينا منهم ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ﴾ : أى استمروا على ما هم عليه من المعاصى والمنكرات ، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب ﴿ وكانوا مجرمين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ .

يخبر الله تعالى بأنه لم يهلك قرية إلا وهى ظالمة لنفسها ، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين ، كما قال تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ ^(٤) .

فالظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر ، وهل يبىد المجتمعات إلا الظلم ، قال تعالى ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ ^(٥) ، ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾ ^(٦) ، ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ ^(٧) ، ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾ ^(٨) ﴿ وتلك القرى أهلكناها لما ظلموا ﴾ ^(٩) .

(٦) الآية ٤٨ من سورة الحج .

(٧) الآية ٥٩ من سورة القصص .

(٨) الآية ١٣ من سورة يونس .

(٩) الآية ٥٩ من سورة الكهف .

(١) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران .

(٢) أخرجه الامام أحمد فى (١ : ٥ ، ٧) .

(٣) الآية ١٠١ من سورة هود .

(٤) الآية ٤٦ من سورة فصلت .

(٥) الآية ٤٥ من سورة الحج .

وسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة الذى يقول فى حديثه القدسى الجليل : (يا عبادى لقد حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا)^(١) .

وسبحان القائل ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾^(٢) . وجل جناب الحق إذ يقول ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾^(٣) ، ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾^(٤) .

قوله تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ .

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس أمة واحدة من إيمان أو كفر ، كما قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ﴾^(٥) .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يزالون مختلفين • إلا من رحم ربك ﴾ :

أى ولا يزال الخُلف بين الناس فى أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم .

وقوله : ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ : أى إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين ، أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى كان النبى وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه وآزروه ، ففاز بسعادة الدنيا والآخرة ، لأنهم الفرقة الناجية كما جاء فى الحديث المروى فى المسانيد والسنن من طرق يشد بعضها بعضها : (إن اليهود افرقت على إحدى وسبعين فرقة وأن النصرارى افرقت على ثنتين وسبعين فرقة وستفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين شعبة كلها فى النار إلا فرقة واحدة ، قالوا : ومن هى يا رسول الله ؟ قال : (ما أنا عليه وأصحابى)^(٦) . رواه الحاكم فى مستدركه بهذه الزيادة .

وقال عطاء : ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ يعنى اليهود والنصارى والمجوس . ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ يعنى الحنيفية . وقال قتادة : أهل رحمة الله أهل الجماعة ، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم ، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم .

وعن طاوس أن رجلين اختصما إليه فأكثرأ ، فقال طاوس : اختلفتما وأكثرتما . فقال أحد الرجلين : لذلك خُلقنا . فقال طاوس : كذبت . فقال : أليس الله يقول ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ قال : لم يخلقهم ليختلفوا ، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة . وكما قال

(٥) الآية ٤٤ من سورة يونس .

(٢) الآية ٤٠ من سورة النساء .

(١) الآية ١٠١ من سورة هود

(٦) الآية ٩٩ من سورة يونس .

(٣) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

(٤) أخرجه أبو داود فى السنة (١) . والدرامى فى السير (٧٤) .

ابن عباس قال : للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة ويرجع معنى هذا القول ، إلى قوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾^(١) .

قوله تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ .

يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة ، أن ممن خلقه من يستحق الجنة ، ومنهم من يستحق النار ، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقيلين الجن والإنس ، وله الحجة البالغة ، والحكمة التامة .

وفي الصحيحين عن أنى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (اختصمت الجنة والنار . فقالت الجنة : مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم . وقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشياء . وقال للنار : أنت عذابى أنتقم بك ممن أشياء ، ولكل واحدة منكما ملؤها . فأما الجنة فلا يزال فيها فصل حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة ، وأما النار فلا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع عليها رب العزة قدمه ، فتقول : قط قط وعزتك)^(٢)

قوله تعالى ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ .

يقول تعالى : وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أمهم ، وكيف جرى لهم من الحاجات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى ، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين ، وخذل أعداءه الكافرين ، وكل هذا مما نثبت به فؤادك ، أى قلبك يا محمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة .

وقوله : ﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾ : أى هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء ، وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم ، وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قصص حق ، ونبأ صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون ، وذكرى يتذكر بها المؤمنون .

قوله تعالى : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون ﴾ :

يقول الله تعالى أمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد ﴿ اعملوا

(١) الآية ٥٦ من سورة الناريات ..

(٢) أخرجه البخارى فى التوحيد (٢٥) . والأمام أحمد فى (٢ : ٥٠٧) .

على مكاتكم ﴿ أي على طريقتكم ومنهجكم ، ﴿ إنا عاملون ﴾ أي على طريقتنا ومنهجنا ﴿ وانتظروا إنا منتظرون ﴾ أي ﴿ فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾ (١) .

وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده وجعل كلمته هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم .

قوله تعالى : ﴿ والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ :

يجبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض ، وأنه إليه المرجع والمآب ، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب ، فله الخلق والأمر ، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه ، فإنه كاف من توكل عليه وأتاب إليه ، وقوله ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ أي ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد ، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم ، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة ، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين ، سبحانه أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا .

فاللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، عليك توكلت ، وأنت رب العرش العظيم ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . اعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا .

اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم ، يا نعم المولى ويا نعم النصير ، سبحانه ربنا وإليك المصير ، وصل الله على البشير النذير .

(١) الآية ٣٧ من سورة القصص .

سورة يوسف

مقدمة

قال صاحب البصائر : هذه السورة مكية بالاتفاق ، وعدد آياتها مائة وإحدى عشرة ، وكلماتها ألف وسبعمائة وست وسبعون ، وحروفها سبعة آلاف ومائة وست وستون .

وسميت بسورة يوسف لاشتمالها على قصته .

مقصود السورة إجمالاً : عرض العجائب التي تتضمنها : من حديث يوسف ويعقوب ، والوقائع

التي في هذه القصة ، من تعبير الرؤيا ، وحسد الأخوة ، وحيلهم في التفريق بينه وبين أبيه ، وتفصيل الصبر الجميل من جهة يعقوب ، وبيع الأخوة أحاهم بثمان بنحس ، وعرضه على البيع والشراء ، بسوق مصر ، ورغبة زليخا وعزيز مصر في شرائه ، ونظر زليخا إلى يوسف ، واحتراز يوسف منها ، وحديث رؤية البرهان وشهادة الشاهد ، وتغيير النسوة زليخا ، وتحيرهن في حسن يوسف ، وجماله ، وحبسه في السجن ، ودخول الساقى والطباخ إليه ، وسؤالهما إياه ودعوته إياه إلى التوحيد ونجاة الساقى ، وهلاك الطباخ ، ووصية يوسف للساقى بأن يذكره عند ربه ، وحديث رؤيا مالك بن الريان ، وعجز العابرين عن عبارته ، وتذكر الساقى يوسف ، وتعبيره لرؤياه في السجن ، وطلب مالك يوسف ، وإخراجه من السجن ، وتسليم مقاليد الخزائن إليه .

ومقدم إخوته لطلب الميرة ، وعهد يعقوب مع أولاده ، ووصيتهم في كيفية الدخول إلى مصر ، وقاعدة تعريف يوسف نفسه لبنايمين ، وقضائه حاجة الإخوة وتغييره الصاع في أحلامهم ، وتوقيف بنيامين بعله السرقة ، واستدعائهم منه توقيف غيره من الإخوة مكانه ، ورده الإخوة إلى أبيهم ، وشكوى يعقوب من جور الهجران ، وألم الفراق ، وإرسال يعقوب إياهم في طلب يوسف وأخيه ، وتضرع الإخوة بين يدي يوسف ، وإظهار يوسف لهم ما فعلوه معه من الإساءة وعفوه عنهم ، وإرساله بقميصه صحبتهم إلى يعقوب ، وتوجه يعقوب من كنعان إلى مصر ، وحوالة يوسف ذنب إخوته على مكائد الشيطان ، وشكره لله تعالى على ما حوَّله من الملك ، ودعائه وسؤاله حسن الخاتمة ، وجميل العاقبة ، وطلب السعادة ، والشهادة ، وتغيير الكفار على الأعراض من الحجَّة .

والإشارة إلى قصة يوسف عبرة للعالمين في قوله ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ إلى

آخر السورة .

المتشابهات

قوله : ﴿ إن ربك عليم حكيم ﴾ ليس في القرآن غيره . أى عليم : علّمك تأويل الأحاديث ،

حكيم : اجتباك للرسالة .

قوله : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ﴾ في موضعين ، وليس بتكرار : لأنه

ذكر الأول حين نُعي إليه يوسف ، والثاني حين رفع إليه ما جرى على بنيامين .

قوله : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ﴾ ومنها في القصص وزاد فيها ﴿ واستوى ﴾ ، لأن يوسف عليه السلام أوحى إليه وهو في البئر ، وموسى عليه السلام أوحى إليه بعد أربعين سنة ، وقوله ﴿ واستوى ﴾ إشارة إلى تلك الزيادة .

ومثله : ﴿ وبلغ أربعين سنة ﴾ بعد قوله : ﴿ حتى إذا بلغ أشده ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ معاذ الله ﴾ هنا في موضعين ، وليس بتكرار ، لأن الأول ذكره حين دعتة إلى الواقعة ، والثاني حين دعى إلى تغيير حكم السرقة .

قوله : ﴿ قلن حاش لله ﴾ في موضعين : أحدهما في حضرة يوسف حين نفين عنه البشرية بزعمهن ، والثاني بظهر الغيب حين نفين عنه السوء .

قوله : ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ في موضعين : ليس بتكرار ، لأن الأول من كلام صاحبي السجن ليوسف ، والثاني من كلام إخوته له .

قوله : ﴿ يا صاحبي السجن ﴾ في موضعين : الأول ذكره يوسف حين عدل عن جوابها اللأ دعائهما إلى الإيمان ، والثاني حين عاد إلى تعبير رؤيها ، تنبيها على أن الكلام الأول قد تم .

قوله : ﴿ لعل أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴾ كرر (لعل) مراعاة لفواصل الآي ، ولو جاء على مقتضى الكلام لقال لعلني أرجع إلى الناس فيعلموا ، بحذف النون على الجواب ، ومثله في هذه السورة سواء قوله : ﴿ لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ أى لعلهم يعرفونها فيرجعوا .

قوله : ﴿ ولما جهزهم بجهازهم ﴾ في موضعين : الأول حكاية عن تجهيزه إياهم أول ما دخلوا عليه ، والثاني حين أرادوا الانصراف من عنده في المرة الثانية ، وذكر الأول بالواو ، لأنه أول قصصهم معه ، والثاني بالفاء ، عطفا على (ولما دخلوا) وتعقبيا له .

قوله : ﴿ تالله ﴾ في ثلاثة مواضع : الأول يمين منهم أنهم ليسوا سارقين ، وأن أهل مصر بذلك عالمون ، والثاني يمين منهم أنك لو واطبت على هذا الحزن والجزع تصير حرضا ، أو تكون من الهالكين ، والثالث يمين منهم أن الله فضله عليهم ، وأنهم كانوا خاطئين .

قوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ وفي الأنبياء ﴿ وما أرسلنا قبلك ﴾ بغير (من) لأن (قبل) اسم للزمان السابق على ما أضيف إليه ، و (من) يفيد استيعاب الطرفين ، وما في هذه السورة للاستيعاب . وقد يقع (قبل) على بعض ما تقدمه كما في الأنبياء ، وهو قوله : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية ﴾^(١) ثم وقع عقبه ﴿ وما أرسلنا قبلك ﴾^(١) فحذف (من) لأنه هو بعينه .

(١) الآيات ٦ ، ٧ من سورة الأنبياء .

قوله ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ بالفاء . وفي الروم ، والملائكة بالواو ، لأن الفاء يدل على الاتصال والعطف ، والواو يدل على العطف المجرد . وفي هذه السورة قد اتصلت بالأول كقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجلا نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا ﴾^(١) . حال من كذبهم وما نزل بهم ، وليس كذلك في الروم والملائكة .

قوله : ﴿ ولدار الآخرة خير ﴾ بالإضافة ، وفي الأعراف ﴿ والدار الآخرة خير ﴾^(٢) على الصفة ، لأن هنا تقدم ذكر الساعة ، فصار التقدير : ودار الساعة الآخرة ، فحذف الموصوف ، وفي الأعراف تقدم قوله : ﴿ عرض هذا الأدنى ﴾^(٣) أى المنزل الأدنى ، فجعله وصفا للمنزل ، والدار الدنيا والدار الآخرة بمعناه ، فأجرى مجراه .

قال الشيخ المراعى رحمه الله تعالى في تفسيره لسورة يوسف : رأينا أن تقدم لك أيها القارىء صورة موجزة تبين لك حال هذا النبي الكريم والعبرة من ذكر قصته في القرآن العظيم ، لتكون ذكرى للذاكرين ، وسلوة للقارئ والسامعين .

يوسف الصديق : مثل كامل في عفته

يوسف عليه السلام آية خالدة على وجه الدهر ، تتلى في صحائف الكون بكرة وعشيا ، تفسر طيب تجاره وطهارة إزاره ، وعفته في شبابه وقوته في دينه ، وإيثاره لآخرفته على دنياه ، وأفضل هداية تمثل للنساء والرجال المثل العليا في العفة والصيانة التى لا تتم لأحد من البشر إلا بصدق الإيمان بالله ، ومراقبته له في السر والعلن .

وسورته منقبة عظمت له ، وآية بينة في إثبات عصمته ، وأفضل مثل عملى يقتدى به النساء والرجال ، فبتلاوته يشعر القارىء بمبالغة الشهوة الحسية على النفس من سلطان . ويسمع بأذنه تغلب الفضيلة في المؤمن على كل رزيلة . بقوة الإرادة ، ونوازع الشرف والعصمة ، ففيها أحسن الأسوة للمؤمنين من الرجال والنساء .

فيها قصة شاب كان من أجمل الناس صورة ، وأكملهم بنية ، يخلو بامرأة ذات منصب وسلطان وهى سيدة له وهو عبدها ، يحملها الافتتان بجماله على أن تُدِل نفسها له ، وتخون بعلمها فتراوده عن نفسه (وقد جرت العادة حتى فى الطبقات الدنيا منزلة وتربية أن يكون النساء مطلوبات لا طالبات) فيسعها من حكمته ، ويربها من كماله وعفته ما هو أفضل درس فى الإيمان بالله ، والاعتصام بحبله المتين ، وفى حفظه أمانة سيده الذى أحسن مثواه ، فيقول ﴿ إنه ربي أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ﴾ فتشعر حينئذ بالذل والمهانة والتفريط فى الشرف والصيانة ، وتحقير مقام السيادة والكرامة .

إلا أن فيها أعظم دليل على صبره و حلمه ، وأمانته وعدله ، وحكمته وعلمه ، وعفوه وإحسانه ، فكفى شاهدا على صبره أن إخوته حسدوه فألقوه فى غيابة الجب ، وأخرجته السيارة وباعوه بيع العبيد ، وكادت له امرأة العزيز فُرِّج به فى السجن ، فصبر على أذى الإخوة وكيد امرأة العزيز ومكر النسوة ، إذ

(١) الآية ١٠٩ من سورة يوسف . (٢) الآية ١٦٩ من سورة الأعراف . (٣) الآية ١٦٩ من سورة الأعراف .

علم ما في الفاحشة من مفسد وما في العدل والإحسان من منافع ومصالح ، فآثر الأعلى على الأدنى ، فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الإثم .

وكانت العاقبة أن نجاه الله ورفع قدره ، وأذل العزيز وامرأته ، وأقرت المرأة ، والنسوة ببراءته ، ومكن له في الأرض وكانت عاقبته النصر ، والملك والحكم ، والعاقبة للمتقين . قال سبحانه ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوء منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

وأما عدله وأمانته وعلمه وحكمته ، فقد ظهرت جليا حين تولى الحكم في مصر أيام السبع سنين العجاف التي أكلت الحرث والنسل ، وكادت توقع البلاد في المجاعات ، ثم الهلاك المحقق ، لولا حكمته وعدله بين الناس ، والسير بينهم بالسوية . وعلى الصراط المستقيم بلا جنف ، ولا ميل مع الهوى .

ما في قصة يوسف من عبرة

إن في هذه القصة لعبرة أيما عبرة لعلية القوم وساداتهم ، رجالهم ونسائهم ، مُجَانِهِم وَأَعْفَائِهِم ، من نساء ورجال ، فإن امرأة العزيز لم تكن من قبل غوية ، ولا كانت في سيرتها غير عادية ، لكنها ابتليت بحب هذا الشاب الفاتن الذي وضعه عزيز مصر في قصره ، وخلي بينه وبين أهله ، فأذلت نفسها له ، بمرادته عن نفسه ، فاستعصم وأبى وأثر مرضاة ربه ، فشاع في مصر ، دورها وقصورها وذها له ، وإياؤه عليها ، كما قال سبحانه ﴿ وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ .

وقد ذكرناها بالوصف « امرأة العزيز » دون الاسم منها استعظاما لهذا الأمر منها ، ولا سيما وأن زوجها عزيز مصر أو رئيس حكومتها ، وقد طلبت الفاحشة من مملوكها ، وفتاها الذي هو في بيتها وتحت كنفها ، وذلك أقبح لوقوعها منها ، وهي السيدة ، وهو المملوك ، وهو التابع وهي المتبوعة ، وقد جرت العادة بأن نفوس النسوة تعزف عن مثل هذه الدناءة ، ولا ترضى لنفسها بهذه الذلة التي تشعر بالمساواة لا بالسيادة ، وبالضعة لا بالعظمة ، والله في خلقه شئون .

وقد تضمن وصف النسوة لها بهذا الوصف أنها لم تقتصد في حبا ، ولا في طلبها .

أما الأولى : فقولهن فيها ﴿ قد شغفها حبا ﴾ أي قد وصل حبه إلى شغاف قلبها (العشاء المحيط به) وغاص في سويدائه ، كما قال شاعرهم :

يعلم الله أن حبك منى في سواد الفؤاد وسط الشغاف

وأما الثانية فقولهن : « تراود فتاها عن نفسه » .

فلما سمعت بهذا المكر القوي ، قابلتهن عليه بمكر فعلى ، فقد جمعتهن وأخرجه عليهن ، فلم يشعرن إلا وأحسن خلق الله قد طلع عليهن بغتة ، فراعهن ذلك الحسن الفتان ، وفي أيديهن مدى يقطعن بها مما يأكلنه ، فقطعن أيديهن وهن لا يشعرن بما فعلن ، مأخوذات بذلك الحسن . كما جاء في قوله سبحانه

﴿ فلما رأيته أكبره وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ . قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .

فلما هددته بالسجن والإذلال بعد أن هتك سترها ، وكاشفت النسوة في أمرها ، وتواطأن معها على كيدها ، آثر عليه السلام الاعتقال في السجن على ما يدعونه إليه من الفحش والخنا ﴿ قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ .

وإنه ليستين من هذا القصص أن امرأة العزيز كانت مالكة لقياد زوجها الوزير الكبير ، تصرفه كيف شاءت ، وشاء لها الهوى ، إذ كان فاقدا للغيرة كأمثاله من كبراء الدنيا صغار الأنفس ، عبيد الشهوات .

قال في الكشف عند ذكر ما رأوا من الشواهد الدالة على براءته : وما كان ذلك إلا باستئزال المرأة لزوجها . وقتلها منه في الدرورة والغارب ، وكان مطواعه لها ، وجملا ذلولاً زمامه في يدها ، حتى أنساه ذلك ما عين من الآيات ، وعمل برأيها في سجنه ، لإلحاق الصغار به كما أوعدته ، وذلك لما أيسر من طاعته ، وطمعت في أن يذلل السجن ، ويسخر لها . ا.هـ .

وإنا لنستخلص من هذه القصة الأمور التالية :

١ - إن النقم قد تكون ذريعة لكثير من النعم ، ففي بدء القصة أحداث كلها أتراح ، أعقبتها نتائج كلها أفرح .

٢ - إن الأخوة لأب قد توجد بينهم ضغائن وأحقاد ، ربما تصل إلى تمنى الموت أو الهلاك أو الحوائج التي تكون مصدر النكبات والمصائب .

٣ - أن العفة والأمانة والاستقامة تكون مصدر الخير والبركة لمن تحلى بها ، والشواهد فيها واضحة ، والعبرة منها ماثلة لمن اعتبر وتدبر ، ونظر بعين الناقد البصير .

٤ - إن أسسها ودعامتها هو خلوة الرجل بالمرأة فهي التي أثارت طبيعتها وأفضت بها إلى إشباع أنوثتها ، والرجوع إلى هواها وغريزتها ، ومن أجل هذا حرم الدين خلوة الرجل بالمرأة ، وسفرها بغير محرم ، وفي الحديث (ما أجمع رجل وامرأة إلا والشيطان ثالثهما)^(١) .

وإنا لنرى في العصر الحاضر أن الداء الدوى ، والفساد الخلقى ، الذى وصل إلى الغاية (وكلنا نلمس آثاره ونشاهد بلواه) ما بلغ إلى ما نرى إلا باختلاط الرجال بالنساء في المراقص والملاهي والاشترك معهم في المفاسد والمعاصي ، كمعاقرة الخمر ، ولعب القمار في أندية الخزى والعار ، وسباحة النساء مع الرجال في الحمامات المشتركة .

(١) أخرجه الترمذى في الرضاع (١٦) وفي الفتن (٧) . والإمام أحمد في (١ : ١٨ ، ٢٦) وفي (٣ : ٣٣٩ ، ٤٤٦) .

وبعد : فهل لهذه البلوى من يفرج كربتها ، وهل لهذا الليل من يزيل ظلامه ، وهل لهذه الجراح من آس وهل لهذه الفوضى من علاج . ولهذا الطامة من يقوم بحمل عبثها عن الأمة ، ويكون فيه من الشجاعة ما يجعله يرفع الصوت عالياً بالنزوع عن تلك الغواية ، ويرد أمر المجتمع ، والحرص على آدابه إلى ما قرره الدين ، وسار عليه سلف المسلمين المتقين ، فيصلح أمره ، وتزهو الفضيلة ، وتنشأ نابتة جديدة تقوم على حراسة الدين في بلاد المسلمين ، والله الأمر من قبل ومن بعد .
هدانا الله إلى سبيل الفلاح ، وسدد خطانا إلى طريق النجاح ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾
نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ
لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾

روى البيهقي أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا موافقتها لما عندهم ، وهو من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس .

قوله تعالى ﴿الر﴾ هذه بعض حروف الهجاء ، ويراد بها الإشارة إلى إعجاز هذا الكتاب المبين الواضح الدلالة .

قال الله تعالى : ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ وكتاب الله تعالى هو المخرج من الفتن ، لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا تملأ الأفتياء ، ولا يشبع منه العلماء .

قال الإمام الشاطبي رضي الله عنه :

وخير جلس لا يمل حديثه
وترداده تزداد فيه تجملا
وحيث الفتى يرتاع في ظلماته
من القبر يلقاه سنئ متهلا
هنالك يهنيه مقبلا وروضة
ومن أجله في ذروة العز يجتلي
يناشد في إرضائه لحبيبه
وأجدر به سؤلا إليه موصلا

فيا أيها القارى به متمسكاً
مجلا له في كل حال مجلا
هنيئاً مريئاً والداك عليهما
ملابس أنوار من التاج والحلي

قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾

ذلك لأن لغة العرب أشرف اللغات ، وقد زادها الله شرفا ورفعة بإنزال القرآن بها ، قال تعالى في سورة الزخرف : ﴿ حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ (١)

قوله تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ :

عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : أنزل على النبي ﷺ القرآن ، قال فتلاه عليهم زمانا ، فقالوا : يارسول الله لو قصصت علينا ؟ ما أنزل الله عز وجل ﴿ ألر تلك آيات الكتاب المبين ﴾ إلى قوله ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ثم تلاه عليهم زمانا فقالوا : يارسول الله لو حدثتنا ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ الآية وذكر الحديث .

وبما يناسب ذكره عن هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن ، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ، ما رواه أحمد عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ قال : فغضب وقال : (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب ؟) والذي نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء ، فيخبرونكم بحق فتكذبونه ، أو يباطل فتصدقونه ، والذي نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى) .

وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟ قال فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبد الله بن ثابت : فقلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربا وبالإسلام ديننا وبمحمد رسولا قال : فسرى عن النبي ﷺ وقال (والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللت إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين) (٢) .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى عن خالد بن عرفطة قال : كنت جالسا عند عمر إذ أتى برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس فقال له عمر : أنت فلان بن فلان العبدى ؟ قال : نعم قال : وأنت النازل

(١) الآيات ١ - ٤ من سورة الزخرف . (٢) أخرجه الامام أحمد في (٤ : ٢٦٦) وفي (٣ : ٤٧١) .

بالسوس ؟ قال : نعم فضربه بقناة معه قال : فقال الرجل : مالي يا أمير المؤمنين ؟ فقال له عمر اجلس فجلس فقرأ عليه :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . آلم تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ * نحن نقص عليك أحسن القصص - إلى قوله - لمن الغافلين ﴿ فقرأها عليه ثلاثا ، وضربه ثلاثا ، فقال له الرجل : مالي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أنت الذي نسخت كتاب دانيال ؟ قال : مرني بأمرك أتبعه . قال : انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض ، ثم لا تقرأه ولا تقرئه أحداً من الناس ، فكن بلغني عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأنهنكك عقوبة ، ثم قال : اجلس فجلس بين يديه فقال : انطلقت أنا فانتسخت كتابا من أهل الكتاب ثم جئت به في أديم فقال لي رسول الله ﷺ (ما هذا في يدك يا عمر ؟) قال : قلت يا رسول الله كتاب نسخته لتزداد به علما إلى علمنا فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه ، ثم نودي بالصلاة جامعة فقالت الأنصار : أغضب نبيكم ﷺ ، السلاح السلاح فجاءوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ فقال (يا أيها الناس إني أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لي اختصارا ، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون) قال عمر : ففقت فقلت : رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبك رسولا . ثم نزل رسول الله ﷺ) وقد رواه ابن أبي حاتم في تفسيره .

رؤيا يوسف

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالَ يَبْنَئِي لَاتَقْضُصُ رُءُوبَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٢٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُنْتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٦﴾

المفردات : ﴿ لأبيه ﴾ : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم روى أحمد والبخارى أن النبي ﷺ قال (الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم) ﴿ أحد عشر كوكبا ﴾ : هم إخوته ، وكانوا أحد عشر نفراً . ﴿ الشمس والقمر ﴾ : أبوه وأمه . ﴿ والسجود ﴾ : من سجد البعير إذا خفض رأسه لراكبه حين ركوبه ، وكان من عادة الناس من تحية التعظيم بفلسطين ومصر وغيرها الانحناء مبالغة في الخضوع والتعظيم وقد استعمله القرآن في انقياد كل المخلوقات لإرادة الله وتسخيره ، ولا يكون السجود عبادة إلا بالقصد والنية ، للتقرب إلى من يعتقد أن له

عليه سلطانا غيبيا فوق سلطان الأسباب المعهودة . ﴿ وقص الرؤيا ﴾ : الإخبار بها على وجه الدقة والإحاطة . ﴿ وكاد له ﴾ : إذا دبر الكيد لأجله لمضرتة أو لمنفعتة كما قال ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ . ﴿ والاجتباء ﴾ : من جبيت الشيء (إذا حصلته لنفسك والتأويل الإخبار بما يؤول إليه الشيء في الوجود وسميت الرؤيا أحاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها .

﴿ والآل ﴾ أصلها : أهل وهو خاص بمن لهم شرف وخطر في الناس كآل النبي ﷺ وآل الملك . يقول تعالى : اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف ، إذ قال لأبيه ، وأبوه هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام كما قال الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال (الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم)^(١) رواه البخارى .

وعن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ أى الناس أكرم قال (أكرمهم عند الله أتقاهم) قالوا ليس عن هذا نسألك قال (فأكرم الناس يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله) قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : (فعن معاوية العرب تسألونى) قالوا : نعم . قال (فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا)^(٢) .

وقال ابن عباس : رؤيا الأنبياء وحى ، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته ، وكانوا أحد عشر رجلا سواه ، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه . روى هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثورى وقد وقع تفسيرها حين رفع أبويه على العرش وهو سريره وأخوته بين يديه ﴿ وخرروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها رى حقا ﴾ . قوله تعالى : ﴿ قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ :

ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إذا رأى أحدكم ما يجب فليحدث به ، وإذا رأى ما يكرهه فليتحول إلى جنبه الآخر ، وليتفل عن يساره ثلاثا ، وليستعد بالله من شرها ، ولا يحدث بها أحداً ، فإنها لن تضره)^(٣) .

وقال رسول الله ﷺ (الرؤيا على رجل طائر مالم تعبر فاذا عبرت وقعت)^(٤) .

- (١) أخرجه البخارى فى الأنبياء (١٩) وفى المناقب (١٣) وفى التفسير (سورة ١٢ : ١) . والترمذى فى التفسير (سورة ١٢ : ١) .
- (٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء (٨ ، ١٤ ، ١٩) وفى المناقب (١ ، ٢٥) وفى التفسير (سورة ١٢ : ١) . ومسلم فى الفضائل (١٦٨) . والامام أحمد فى (٤ : ١٠١) .
- (٣) أخرجه مسلم فى الرؤيا (٤) . والدرامى فى الرؤيا (٥) . والامام أحمد فى (٣ : ٨) وفى (٥ : ٣٠٣) .
- (٤) أخرجه للامام أحمد فى (٤ : ١٠ ، ١١) . وابن ماجه فى الرؤيا (٦) . والدرامى فى الرؤيا (١١) .

ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر ، كما ورد في حديث (استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها فإن كل ذى نعمة محسود) .

وما قال يعقوب لابنه يوسف : لا تقصص رؤياك على إخوتك إلا حرصا عليه منهم ، وذلك خشية الحسد فيكيدون له كيذا ، ويحتالون عليه احتيالا ، حتى يوقعوه في مالا تحمد عقباه ، وذلك بما يوحيه الشيطان إليهم ، وبما يوسوسه لهم ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين ، أعاذنا الله تعالى من شره .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم ﴾ :

يقول تعالى مخبرا عن قول يعقوب لولده يوسف إنه كما اختارك ربك ، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ، ﴿ كذلك يجتبيك ربك ﴾ أى يختارك ويصطفيك لنبوته ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، قال مجاهد : يعنى الرؤيا ، ويتم نعمته عليك أى بإرسالك والإيحاء إليك . ولهذا قال ﴿ كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم ﴾ أى هو أعلم حيث يجعل رسالته ، كما قال فى الآية الأخرى .

التأمر على يوسف

* لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلسَّالِفِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْبَانًا مِّنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْه فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعْنَا غَدَا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفُظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً وَبِكُونٍ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا

فَأَكَلَهُ الذُّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَ وَعَلَى قَمِيصِهِ بَدْمٌ
كَذِبٌ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

المفردات: ﴿الناصح﴾ المشفق المحب للخير . ﴿الرتع﴾ : الاتساع في الملاذ والمراد باللعب لعب المسابقة والاتصال بالهام ونحوهما ، مما يتدرب به لمقابلة الأعداء ، وتعليم فنون الحرب .
﴿والحزن﴾ : ألم النفس من فقد محبوب أو وقوع مكروه . ﴿والخوف﴾ : والخوف ألم النفس من توقع مكروه قبل وقوعه . ﴿والعصبة﴾ : الجماعة التي تعصب بها الأمور وتكفي بآرائها الخطوب .
﴿وخاسرون﴾ : ضعفاء عاجزون أو هالكون لا غناء عندهم ولا نفع . ﴿أجمعوا﴾ : أى عزموا عزمًا لا تردد فيه . ﴿وأوحينا إليه﴾ : أى ألهمناه كما في قوله تعالى ﴿وأوحينا إلى أم موسى﴾ (١) .
﴿والعشاء﴾ : من الغروب إلى العتمة : أى حين يخالط سواد الليل بقية بياض النهار .
﴿والاستباق﴾ : تكلف السبق في العدو أو في الرمي . ﴿والمتاع﴾ : فضل الثياب وماعون الطعام والشراب . ﴿ومؤمن﴾ : أى مصدق . ﴿وسولت﴾ : زينت وسهلت . ﴿والصبر الجميل﴾ : ما لا شكوى فيه إلى الخلق . ﴿على ما تصفون﴾ : أى من هذه المصيبة وعظيم الرزء .
يقول العلامة ابن كثير في تفسير هذا المشهد :

يقول تعالى : لقد كان في قصة يوسف وخبره مع أخوته آيات ، أى عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك ، المستخبرين عنه ، فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ أى حلفوا فيما يظنون ، والله ليوسف وأخوه يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه ، ﴿ أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ﴾ أى جماعة فكيف ، أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ يعنون في تقديمهما علينا ، ومحبتة إياهما أكثر منا .

واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف ، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك ، ومن الناس من يزعم أنه أوحى إليهم بعد ذلك ، وفي هذا نظر ، ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل ، ولم يذكروا سوى قوله تعالى ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴾ (٢) .

وهذا فيه احتمال لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللعجم شعوب ، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل ، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف ، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم ، والله أعلم .

﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم ﴾ يقولون هذا الذى يراحمكم فى محبة

(٢) الآية ١٣٦ من سورة البقرة .

(١) الآية ٧ من سورة القصص

أييكم لكم ، أعدموه من وجه أييكم ، ليخلوا لكم وحدكم ، إما بأن تقتلوه أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه ، وتخلوا أنتم بأييكم ﴿ وتكونوا من بعده قوما صالحين ﴾ فأضرموا التوبة قبل الذنب .
﴿ قال قائل منهم ﴾ قال قتادة ، ومحمد بن إسحق : وكان أكبرهم واسمه روييل . وقال السدي :
الذي قال ذلك يهوذا ، وقال مجاهد : هو شمعون الصفا .

﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ أى لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله ، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله لأن الله تعالى كافيريد منه أمرا لا بد من إتمامه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة ، ومن التمكين له ببلاد مصر ، والحكم بها ، فصر فهم الله عنه بمقالة روييل فيه ، وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب وهو أسفله .
قال قتاده : وهى بئر بيت المقدس ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ أى المارة من المسافرين ، فتستريحوا منه بهذا ، ولا حاجة إلى قتله ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ أى إن كنتم عازمين على ما تقولون .

قال محمد بن إسحق بن يسار : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذى لا ذنب له ، وبالكبير الفانى ذى الحق والحرمة والفضل ، وخطره عند الله ، مع حق الوالد على ولده ، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحببيه على كبر سنه ورقة عظمه ، مع مكانه من الله ، ممن أحبه طفلا صغيرا وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه ، وحاجته إلى لطف والده ، وسكونه إليه ، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين ، فقد احتملوا أمرا عظيما . رواه ابن أبى حاتم من طريق سلمة بن الفضل عنه .

﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴿ :

لما تواطأوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير روييل ، جاعوا أباهم يعقوب عليه السلام ، فقالوا : مابالك ﴿ لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ وهذه توطئة ودعوى ، وهم يريدون خلاف ذلك ، لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له ﴿ أرسله معنا ﴾ أى ابعثه معنا ﴿ غدا يرتع ويلعب ﴾ وقرأ بعضهم بالياء (يرتع ويلعب) قال ابن عباس : يسعى وينشط ، وكذا قال قتادة ، والضحاك ، والسدي ، وغيرهم ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ يقولون ونحن نحفظه ، ونحوطه من أجلك .

﴿ قال إني ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ﴾ :

يقول تعالى مخبرا عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعى في الصحراء ﴿ إني ليحزننى أن تذهبوا به ﴾ أى يشق على مفارقتهم مدة ذهابكم به إلى أن يرجع ، وذلك لفرط محبته له ، لما يتوسم فيه من الخير العظيم ، وشمائل النبوة ، والكمال في الخلق والخلق ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ : يقول وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم ، فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون ، فأخذوا من فمه هذه الجملة وجعلوها عذرتهم فيما فعلوه .

وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة : ﴿ لَنْ أْكُلَهُ الذُّبُّ وَنَحْنُ عَصَبَةٌ إِنْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾ .
يقولون لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ، ونحن جماعة ، إنا إذا هالكون عاجزون .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنْبِتْنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ :

يقول تعالى : فلما ذهب به أخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجَبِّ ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه ، إنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب ، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهره له إكراماً له ، وبسطاً وشرحاً لصدره ، وإدخالاً للسرور عليه ، فيقال إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له .

فذكر السدى وغيره : أنه لم يكن بين أكرامهم له ، وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه ، وتواروا عنه ، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه ، والفعل من ضرب ونحوه ، ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه ، فربطوه بحبل ودلوه فيه ، فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه ، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه ، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء فغمره ، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه يقال لها الراغوفة ، فقام فوقها .

وقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنْبِتْنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ : يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائده وإنزاله اليسر في حال العسر ، أنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطيباً لقلبه ، وتثبيتاً له ، إنك لا تحزن مما أنت فيه ، فإن لك من ذلك فرجا ومخرجا حسناً ، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك ، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع .

وقوله : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإيماء الله إليه ، وقال ابن عباس ستبئهم بصنيعهم هذا في حقل ، وهم لا يعرفونك ، ولا يستشعرون بك .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين * وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴿ :

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف ، بعد ما ألقوه في غيابة الجب ، إنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل ليكون ، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ، ويتنغمون لأبيهم ، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا ﴿ إنا ذهبنا نستبق ﴾ أي نترامى ﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ أي ثيابنا وأمتعتنا

﴿ فأكله الذئب ﴾ وهو الذى كان قد جزع منه وحذر عليه .

وقوله ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ تلتطف عظيم فى تقدير ما يجادلونه ، يقولون ونحن نعلم أنك لا تصدقنا والحالة هذه لو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت متهمنا فى ذلك ، لأنك خشيت أن يأكله الذئب فأكله الذئب ، فأنت معذور فى تكذيبك لنا ، لغرابة ما وقع ، وعجيب ما اتفق لنا فى أمرنا هذا .

﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ﴾ : أى مكذوب مفترى ، وهذا من الأفعال التى يؤكدون بها ما تمالقوا عليه من المكيدة ، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة فيما ذكره مجاهد والسدى وغير واحد ، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها ، موهمين أن هذا قميصه الذى أكله فيه الذئب ، وقد أصابه من دمه ، ولكنهم نسوا أن يخرقوه ، فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع فى نفسه من لبسهم عليه : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ﴾ أى فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذى اتفقتم عليه ، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ . أى على ما تذكرون من الكذب والحال .

وقال الثورى : عن ابن عباس ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ﴾ قال : لو أكله السبع لخرق القميص ، وكذا قال الشعبى وقتادة ، وقال مجاهد : الصبر الجميل الذى لا جزع فيه .

وروى هشيم عن عبد الرحمن بن يحيى عن حبان بن أبى حيلة قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله ﴿ فصبر جميل ﴾ فقال : (صبر لا شكوى فيه) .

وقال عبد الرزاق : قال الثورى عن بعض أصحابه : أنه قال : ثلاث من الصبر : أن لا تحدث بوجعك ، ولا بمصيبتك ، ولا تزكى نفسك .

يوسف مع السيارة

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرَاهُ بِضْعَةَ وَاثَلِ عِلْمٍ بِمَا يُعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

المفردات : ﴿ سيارة ﴾ : هم الجمع المسافرون كالجواله والكشافة . ﴿ واردهم ﴾ : هو الرائد الذى يبحث عن الماء . ﴿ فادلى دلوه ﴾ : فأرسل دلوه - إناء يستقى به من البئر . ﴿ وأسروه ﴾ : أخفوه . ﴿ شروه ﴾ : باعوه بثمن قليل .

وجاءت هذا المكان جماعة مسافرون ، روى أنهم من العرب الإسماعيليين ، فأرسلوا رائدهم يبحث عن الماء ويأتيهم به فأرسل دلوه فى البئر فتعلق به يوسف حتى خرج ، وقال يا بشرى ، احضرى فهذا غلام

وسيم الطلعة ، صبوح الوجه ، فاستبشروا به وسرّوا ، وأخفوه عن أعين الناس ، حتى لا يعلم به أحد ، لأجل أن يكون بضاعة لهم يتاجرون فيه ويبيعونه لأهل مصر ، والله سبحانه لا يغيّب عنه شيء ، عليم بما يفعل هؤلاء وهؤلاء ، وباعه السيارة بثمان قليل دراهم معدودة لم تصل إلى حد الوزن ، وكانوا فيه من الزاهدين الراغبين عنه ، الذين يبتغون الخلاص منه .

يوسف في مصر

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا
وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

المفردات : ﴿ مَثْوَاهُ ﴾ : مقامه عندنا مأخوذ من ثوى بالمكان أى أقام به . ﴿ أَشُدَّهُ ﴾ :

رشده وإكاله .

وقال الذى اشتراه من مصر ، لم يذكر القرآن اسمه ولا صنعتته ولا سكنه ، لأن القرآن ليس كتاب تاريخ أو قصص ، يعنى بهذه الأشياء ، بل قصصه لمعنى أعلى وأسمى ، ولا يتم بمثل هذا ، وقد ذكرت روايات فى اسمه ووظيفته كثيرة ، والظاهر أنه كان رئيس شرطة ﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز ﴾ .

قال : أكرمى مقام هذا الغلام . فلا يكن فى منزلة العبيد والأرقاء ، بل عامله كفرد منا ، فإى الملح منه النبيل والخلق ، وأرى أنه سيكون له شأن ، أكرمه رجاء أن ينفعنا فى أعمالنا الخاصة أو العامة أو نتخذه ولداً لنا تقرّ به أعيننا ، ونرثه ويرثنا .

يا سبحان الله !! أهكذا يكون يوسف الذى ألقى فى الجب !! وقد وقع فى قلب سيده هذا الموقع ، ولا غرابة فإله حارسه وهاديه ، وحافظه وراعيه ، ومثل ذلك التدبير والعناية بيوسف مكانه فى أرض مصر ، وكان هذا العطف من عزيزها فاتحة الخير ، وإن اعترض ذلك ، مكانه فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، وتعبير الرؤيا ، وهكذا إعداد الأنبياء .

﴿ والله غالب على أمره ﴾ ، ومنفذ ما أراد ، لا راداً لقضائه . فكل ما وقع ليوسف من إلقائه فى الجب ، ومن استرقاقه وبيعه ، وتوصية سيده لامرأته بخصوصه ، وتعليمه الرؤيا ، وغير ذلك ، خطوات لإعداد يوسف للمحل الذى ينتظره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك .

﴿ ولما بلغ أشده ﴾ ، وكمل رشده ، واستوى عقله وبدنه ﴿ آتيناه حكماً ﴾ إلهامياً فيما يعرض

له من المشاكل والنوازل ، وسن الرشده هل هى ثلاثون أو أربعون ؟ .

مثل ذلك نجزي المحسنين العاملين ، خصوصا الأنبياء والمرسلين ، وقائدهم وخاتمهم محمد ﷺ .

يوسف مع امرأة العزيز وكيف كانت محنته ؟ ودفاعه

وحكم زوجها

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَالْفَيْسَايَسِدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّارَةً قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾

المفردات : ﴿ راودته ﴾ : طلبت منه أن يواقعها طلبا بلين ورفق كالخداعة ، يقال : راود الرجل المرأة عن نفسها وراودته عن نفسه ، والمرادة أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد غير ما يريد وعليه قوله : ﴿ سترأود عنه أباه ﴾ أي نحتال عليه ، ونخدعه عن إرادته ، ليرسل أخاه معنوا ، والمراد في الآية تحايلت لمواقعة إياها ، ولم تجد منه قبولا . ﴿ غلقت ﴾ : أحكمت إغلاق الأبواب كلها . ﴿ هيت لك ﴾ : هلم أقبل وبادر لما أقوله لك . ﴿ برهان ﴾ المراد تذكرة الله سبحانه وتعالى ، وما بينه من تحريم الزنا والخيانة ومراقبة الله سبحانه في كل عمله ، وهي مرتبة الإحسان في العمل كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . ﴿ المخلصين ﴾ الذين أخلصهم ربهم وصفاهم من الشوائب . ﴿ من قبل ﴾ من قدام . ﴿ من دبر ﴾ من خلف .

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر ، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه ، فراودته عن نفسه ، أي حاولته على نفسه ، ودعته إليها ، ذلك أنها أحبته حبا شديدا لجماله وحسنه

وبهائه ، فحملها ذلك على أن تجملت له ، وغلقت عليه الأبواب ، ودعته إلى نفسها ﴿ وقالت هيت لك ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع ، ﴿ قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير ، أى إن بعلك ربي أحسن مثواي ، أى منزلى ، وأحسن إلى ، فلا أقابله بالفاحشة فى أهله ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ قال ذلك مجاهد والسدى ومحمد بن إسحاق وغيرهم .

إن الله تعالى قبل أن يحدثنا عن مشهد المرادة ، قدم لذلك بقوله : ﴿ ولما بلغ أشده آتياه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ﴾ .

وبهذا يكون يوسف قد أوتى الحكم والعلم ووصفه الله تعالى بالإحسان ، والإحسان كما قال النبي ﷺ : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)^(١) .

فكيف بعد هذا كله يقول عاقل إن يوسف قد مال إليها ، كما مالت إليه ، إن الآية تقول ﴿ وراودته التي هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ﴾ فهذه ثلاثة مواقف من جهتها : المرادة ، وهى الطلب برفق ، وإغلاق الأبواب بإحكام ، وقولها له : هيت لك أى أقبل ، أو هيت لك أى تهبأت لك .

وقد قوبلت هذه المواقف الثلاثة بثلاثة مواقف من يوسف الكريم ، أولها : ﴿ قال معاذ الله ﴾ أى الجأ إلى الله فهو الحصن الحصين ، والركن الركين ، والجناب الأعلى .

وكما قال القائل :

ياربُّ حبك فى دمي وكيانى
نور أغر يذوب فى وجدانى
أنا لا أضام وفى رحابك عصمتى
أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى

وكيف لا يكون ذلك كذلك والله تعالى يقول ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾^(٢) .

وكيف لا يكون يوسف من أهل التقوى وهو الذى قال لإخوته ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

وكان الموقف الثانى : قوله : ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ أى كيف أخون سيدى وهو زوجك ،

(١) أخرجه البخارى فى التفسير (سورة : ٣١ : ٢) وفى الايمان (٣٧) . ومسلم فى الايمان (٥٧) . وأبو داود فى السنة (١٦) . والترمذى فى الايمان (٤) . وابن ماجه فى المقدمة (٩) . والامام أحمد فى (١ : ٢٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٣١٩) وفى (٢ : ١٠٧ ، ٤٢٦) وفى (٤ : ١٢٩ ، ١٦٤) .

(٢) الآية ٣ ، ٤ من سورة الطلاق .

وقد أكرمني وأحسن مقامي ، وأوصاك بذلك ، وقال لك ﴿ أكرمي مثواه ﴾ ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، أخونه في أعلى شيء وهو العرض .

وكان الموقف الثالث : قوله ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ من باب إياك أعنى واسمعى يا جارة ، وفي التلميح ما يغنى عن التصريح ، وفي الإشارة ما يغنى عن العبارة ، فهذه ثلاثة بثلاثة وهذا منتهى الصراحة في براءة يوسف الكريم .

قوله تعالى : ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ :

وفي هذه الآية زلت أقدام ، وتعثرت أقلام ، وانفلتت خيال بعض الكاتبين ، ناسين أو متناسين أنهم يكتبون عن نبي كريم ، منحه الله العصمة ، وأحاطه بالعناية العليا ، والرعاية العظمى ، والعصمة هي حفظ الله تعالى خواطر الرسل وبواطنهم عن التلبس بمنه عنده ، ولقد أردنا أن نبسط القول في هذا المقام ، فوفقنا الله تعالى إلى هذا الكلام الجيد الذي كتبه الأستاذ (محمد مصطفى الشاطر) في كتابه (القول السيد في حكم ترجمة القرآن المجيد) :

قال : قاتل الله اليهود ، لقد ملأوا الدنيا افتراءات على الأنبياء عليهم السلام ، ونسبوا إليهم ما لا يجوز ولا يعقل ، وأشبعوا الجوبهذه المفتريات ، خصوصا بعد ظهور الإسلام كيدا منهم وحسداً ، وتمكنوا من إسناد بعض هذه المفتريات إلى كبار الصحابة ، مثل ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما ، افتراء عليهما ، وبهتاننا ، ليتقبلها العامة من المسلمين بالقبول التام . فلم يسلم الجو العلمى منها ولم تسلم كتب المفسرين منها ، إما لأنهم أخذوها عن بعض القصاص الذين يعتقدون فيها الصلاح ، وإما لأنهم وجدوها في بعض الكتب ، فظنوها صحيحة في تفاسيرهم بحسن نية ، وأخذوا يتمحلون الإجابة عن بعضها بما لا يطمئن إليه قلب المؤمن .

ومن ذلك قصص سيدنا سليمان ، وسيدنا داود ، وسيدنا يوسف عليه السلام ، ولكن الذي يخلى عقله ويظهره من تلك الخزعبلات ، ثم يتوجه به إلى القرآن الكريم يتلوه بتدبر ، وحسن يقين ، يتبين له إن شاء الله تعالى وجه الصواب ناصعا .

ثم قال بشأن يوسف عليه السلام : نسب بعضهم إلى سيدنا يوسف عليه السلام أنه لما راودته امرأة العزيز عن نفسه ، مال إلى طلبها ، وكاد يفعل ، أو أنه أراد مخالطتها ، وقعد منها مقعد الرجل من المرأة ، إلا أنه انصرف عنها ، إما لأنه رأى معصما مكتوبا عليه النهي عن الزنا ، قد ظهر من بين الجدران منفردا عن الجسم ، أو لأنه رأى سقف البيت قد انفرج وظهر له وجه أبيه يعقوب ، عاصباً على إصبعه ، أو لأنه رأى صورته في الجدار كذلك ، أو لأنه سمع نداء يناه عن الزنا ، فلم ينته فسمع نداء ثانيا فلم ينته ، فسمع نداء ثالثا كذلك إلى آخر تلك المفتريات التي شوهدت بها محاسن التفاسير ، وليس لهذه الأقاويل - والحمد لله - في كتب الأحاديث الصحيحة أصل ، ولا آية إشارة إليها .

ثم إن بعض المفسرين رأى أن هذه المفتريات غير معقولة ، ولا أصل لها ، فخفف منها ، واختار أن يكون لها معنى ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ أنه مال إليها ، إلا أنه امتنع حينها رأى برهان ربه ، وأخذ يبين هذا البرهان بما يقرب من الخيالات ، ولكن تفسيره المهم بالميل المجرد يأباه الذوق العربي ، لأن الكلام يكون هكذا « مال إليها ومالت إليه » فيكون مثلهما سواء ، ويكون الحكم عليها في هذا واحداً ، وذلك لا يجوز .

وفيه أيضاً: إسناد ميله إلى الزنا ، وهذا لا يجوز في حق الأنبياء عليهم السلام ، مهما أجابوا من أن الإنسان لا يؤخذ على الميل ، فإن ذلك ليس شأن الأنبياء الذين هم القدوة العليا في الأخلاق والأعمال والأقوال .

وأهل العلم يقولون في قوله تعالى ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ (١) أن ذلك كان قمين مضى قبلنا ، وقد نسخ ذلك بالنسبة لنا فقط ، بقوله ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ (٢) .

ثم إن تفسير (هم) بمعنى مال يضع الحكمة التي من أجلها اختيرت كلمة (هم) دون ما يرادفها من مال أو قصد أو عزم ، وستعرف إن شاء الله تلك الحكمة ، ومن أجل ذلك فإن النفس المؤمنة لا تطمئن إلى هذه الأقاويل ، وإنما تطمئن إن شاء الله تعالى إلى ما يتلى .

إذا قرأت سورة يوسف بإمعان تبين لك أن الله سبحانه وتعالى وصفه أولاً بالصفات الآتية :

(١) اجتباؤه واصطفاه .
(٢) تعليمه تأويل الأحاديث ، وذلك بقوله تعالى ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ .

(٣) إيماءه إليه في الجب ، حينما رماه إخوته ، ولجأ إلى الله تعالى قائلاً بلسان حاله أو مقاله ، كما روى عنه : (يا شاهداً غير غائب ، ويا قريباً غير بعيد ، ويا غالباً غير مغلوب ، اجعل لي من أمرى فرجاً) فأنسه الله بالوحي ، وأعلمه عاقبة أمره . قال تعالى ﴿ وأوحينا إليه لتبينهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ .

(٤) وإيتاؤه الحكم والعلم ، قال تعالى ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ﴾ والحكم هنا النبوة ، أو سيرة الأنبياء ، وتعزيد الأول إيماءه إليه في الجب .

وقوله تعالى في حق يحيى عليه السلام : ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ (٣) قال المفسرون : الحكم هنا النبوة ، وإلى هذا أميل :

(٥) الإحسان: وهو أفضل درجات العبادة ، وفي الحديث الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه) .

(١) الآية ٢٨٤ من سورة البقرة . (٢) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة . (٣) الآية ١٢ من سورة مريم .

أتظن أيها القارئ أن شخصا يؤتاه الله هذه الصفات ، يهيم أو يميل إلى مخالطة امرأة أجنبية عنه ، كلا وألف كلا ، فإن الزنا أو مقدماته ممحقة للإحسان ، مجلبة للطرد والحرمان .

إن تلك النفس الطاهرة لأبعد وأنزله مما رماها به المفترون ، أو الغافلون .

ثم بعد أن ذكر الله لنا هذه الصفات لتكون قرينة قاطعة لمن يتلمس الحقائق على نزاهته ، كما كان قد قميصه من خلفه قرينة قاطعة على براءته ، قص علينا مقدار حكمته ، ومبلغ عفافه وعصمته ، ومقدار ما تحمله نظير ذلك من الخروج من نعيم القصر إلى ضيق السجن .

فقال تعالى ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ﴾ قبل التكلم في تفسيرها أقول : إن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال الغزالي وغيره أربع درجات مرتبة: الأولى-التعريف والتنبية ، والثانية-النصح بالحسنى ، والثالثة-التحسين في القول ، والرابعة- المنع بالقوة والقهر .

ولقد سار يوسف عليه السلام في هذه الحادثة على تلك القاعدة تماما ، طلبت منه امرأة العزيز ما تطلبه المرأة من الرجل ، وغلقت الأبواب حتى يكونا بمأمن من اطلاع الغير ، ولتحمله على إجابتها ولو كرها ، والتعبير بالمرادة ، وغلقت الأبواب ، يشعران بتكرار الطلب وتكرار الامتناع ، وقالت هيت لك ، أى هلم إلى ما أريد ، وتبيأت لك ، وتزينت لأجلك ، فأجب طلبى .
فقال : ﴿ معاذ الله . إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .

تلك ثلاث جمل قد جمعت كل ما يستوجب الاعتصام ، والبعد عن هذا المنكر فعلا وإرادة وميلا ، بل كل واحدة منها كافية في العصمة فما بالك كلها .
سيدة في بيتها وفي قومها ، غنية بثروتها ، بديعة في حسنها ، ذات قدرة وسلطان ، وأمر مطاع ، قد غلقت على شاب الأبواب ، وتبيأت له كما تبيأت المرأة لزوجها أو أكثر ، ثم دعت إلى نفسها ، وألحت ، وفي مخالفتها الانتقام والكيد العظيم ، وفي طاعتها وفرة المال ، والتمتع بلذات الحياة كما يشاء ، كل هذه المرغبات والمحاولات لو أحاطت بغير ذلك الطاهر النقي الذي اصطفاه الله لزلزلته ، ولكنها أحاطت بمن آتاه الله الحكم والعلم ، ومن ولد في بيت النبوة وترعرع فيه ، ومن بلغ درجة الإحسان ، فماذا قابلها ؟

قابلها بتلك الجمل الحكيمة الخالدة التي ينبغي أن تتخذ أصولا وقواعد يبنى عليها علماء الأديان والأخلاق فروعاً لا حصر لها . ألا وهي ﴿ معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أى ألتجىء إلى الله ، وأعتصم به ، من أن آتى هذا المنكر ، وأخون زوجك الذى ربانى ، وأحسن إقامتى ، إننى إن فعلت ذلك أكن ممن يقابلون الإحسان بالإساءة ، والتربية بالخيانة ، والنعمة بالكفران ، وهذا ظلم ، ووضع للشئ في غير موضعه ، وعاقبة الظلم الخسران وعدم الفلاح .

فالرب هنا - الذى رباه وهو سيد البيت كما فسره في الكشاف ، والنيسابورى ، وغيرهما ، والضمير في (إنه) للشأن .

ثم إن لهذه الجمل القيمة دلالات تبعية ، لا يبعد أن تكون مرادة له في قوله ﴿ معاذ الله ﴾ تنبيها لها إلى ذكر الله تعالى ، وإلى الخوف من غضبه بسبب الإقدام على هذا المنكر ، لعلها تتذكر وتحشع ، فترجع عن غيها ، قال تعالى ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ (١) أى تذكر الله أكبر في النهى عنهما من الصلاة ، وهذه هى الدرجة الأولى من درجات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأشار بقوله ﴿ إنه ربى أحسن مثواى ﴾ إلى أنه لا يليق بها أن تخون زوجها الذى رباها بنعمه وخيراته وأحسن مقامها ، وغمرها بإحسانه ، وهذه هى الدرجة الثانية .

وأشار بقوله ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ إلى أنها إن أقدمت على هذا المنكر كانت ظالمة لنفسها ولبعلها ، وإن عاقبة الظلم الخسران وعدم الفلاح ، لعلها تتعظ خصوصا أن واعظها هو فتاها ذلك الشاب ، وهذه هى الدرجة الثالثة . بعد هذه النصائح الغالية والتوبيخ والتأنيب من طريق التعريض ، لم ترتدع عن اغيها بل أعماها شيطان الحب ، وأصمها ، فهمت به لياتيها رغما وكرها ، وهذا ما سنشرحه في الآية الثانية .

قال تعالى ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ :

أربع جمل ، والوقف تام عند قوله تعالى ﴿ وهم بها ﴾ وكذلك عند قوله ﴿ برهان ربه ﴾ وإنك لتشعر بجمال هذه الجمل ، إذا قرأتها كما بينت لك ، مع فهم المعنى الذى ستسمعه .
الهم . هنا هو الشروع في تنفيذ ما توطنت النفس عليه من خير أو شر ، وما امتلأت به ، ولا بد أن يكون معه أمانة دالة على ذلك ، وسواء قلنا إن الهم هو العزم والقصد ، أو الشروع في التنفيذ ، فلا بد أن يكون معه أمانة دالة عليه ، وإذا تتبعت تعبيرات القرآن الكريم وجدت أن هذا الشرط لازم ، مثال ذلك قوله تعالى ﴿ وهما بإخراج الرسول ﴾ (٢) أى شرعوا في إخراجه ، وظهرت الأمانة الدالة على ذلك وهو التشاور ، والتكلم فيه .

وقوله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن ييسطوا إليكم أيديهم ﴾ (٣) أى شرعوا وظهرت الأمانة الدالة على ذلك ، وهو رفع السيف (فعلا) على رسول الله ﷺ على أحد الرأين .
وقوله تعالى ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ (٤) أى شرعت مع ظهور الأمارات ، وهو تكلم بعضهم ، وترددهم في أول الأمر .

ويقال هم بالقيام إذا شرع فيه ، وبدرت فيه بوادر تدل عليه ، ويقال فلان مهموم إذا ملأه الحزن ، فظهرت على وجهه أماراته ، ومنه الهم مضمّن لأنه يؤثر على الجسم فيذبله ، ويقال أهمه الأمر إذا أقلقه ، أى ظهر عليه القلق والاضطراب ، واهتم فلان بالأمر إذا ظهرت منه أمارات تدل على اهتمامه .

(١) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت .

(٣) الآية ١١ من سورة المائدة .

(٢) الآية ١٣ من سورة التوبة .

(٤) الآية ١٢٢ من سورة آل عمران .

وحينئذ يكون معنى (همت به وهم بها) أى شرع كل منهما فى تنفيذ ما توطنت عليه نفسيهما ، أو ما عزم عليه ، مع ظهور أمارت من كل منهما تدل على ذلك ، ثم إن عزم النفس تابع لما تفعل به من خير أو شر ، أو عقيدة أو رغبة أو رهبة إلى غير ذلك ، فإذا انفعلت النفس بما لابسها وجد منها العزم الذى يلائم هذا الانفعال ، فشرعت فى تنفيذه وإيجاده ، هذا أمر لا يحتاج إلى توضيح .

فلننظر إذاً فى نفس كل منهما لنعرف نتيجة انفعالها .

أما نفس امرأة العزيز فملأى بحب المخالطة ، شغوفة به ، فهى منفعله بذلك .

وأما نفس يوسف فملأى بالعفاف ، والطهارة والنفرة من هذا الأمر ، فهى منفعله بذلك ، فحملها انفعالها وهياجها على شروعها فى حمله على المخالطة بالقوة بما ظهر منها من أمارات دالة على ذلك ، وحمله انفعاله على شروعه فى منعها بالقوة ، بما ظهر منه من أمارات دالة على ذلك ، وهذه هى الدرجة الرابعة للنهى عن المنكر .

لقد أحجل الله تعالى لنا ما هم به كل منهما ، وتركه لفتنة القارئ ، إلا أنه أشار إليه فى نفس الآية بقوله ﴿ لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ لئلا تنزل قدم مؤمن فى هذا المنزلق الخطير ، أى أنه هم بإساءتها ، وهمت هى بحمله على الفحشاء بما ظهر من كل منهما من أمارات ، والدليل على ظهور أمارة منه قولها بعد ذلك ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ﴾ فإن الإرادة أمر نفس لا تعلمه امرأة العزيز إلا إذا ظهر لها أمارة دالة على ذلك ، كرفع يده مثلاً ، أو تهديدها بالسوء .

وحينئذ يكون معنى قوله تعالى ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ أنها شرعت فى حمله على المخالطة بالقوة بما ظهر منها من أمارات ، وشرع هو فى تنفيذ منعها بما يسوءها بما بدرت منه من أمارات .

ولو كان همهم كما يقول المفسرون الميل إلى المخالطة لما كان هناك فائدة من ذكر كلمة السوء فى قوله ﴿ لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ ولكان كافياً أن يقال لنصرف عنه الفحشاء ، فكلمة السوء تدل على همهم ، وكلمة الفحشاء تدل على همها .

ومما يؤيد ذلك أيضاً أنها قالت لزوجها ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ﴾ ولم تقل مخالطة ، والسوء فى لغة العرب والقرآن غير الفحشاء .

ومما يؤيد ذلك أيضاً شهادة امرأة العزيز حيث تقول : ﴿ لقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ فإنه ليس هناك كلمة أبلغ فى الدلالة على نهاية العصمة وشدتها بجميع أنواعها من هذه الكلمة البالغة ، فدل كل ذلك على أن تفسير الهم بما يقولونه غير مقبول .

ثم قال تعالى : ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ :

الرب هنا سيد البيت أى مربيه ، وهو المشار إليه سابقا في قوله: ﴿ إنه ربى أحسن مثنوى ﴾ وقد استعمل الرب في هذا المعنى كثيرا في هذه السورة ، ومن ذلك قوله ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ﴾ الآية . والبرهان العلامة والبيان - أى لولا أن رأى علامة ربه ، أى علامة حضوره وبجيبته ، وإنما قلنا علامة حضوره ، لأن الله أشار إلى ذلك بقوله ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ فكان ذلك قرينة قاطعة على أن المراد العلامة الدالة على حضوره ، وأنا لا نعرف هذه العلامة على وجه التحقيق ، وإنما الذى نعرفه أن لقدم الأمرء إلى بيوتهم علامات تدل عليه ، وقد تكون تلك العلامة رفع راية مثلا ، أو وجود شخص يعدو أمامه كالسائس مثلا ، ويختلف ذلك باختلاف عادات الأمم ، واختلاف العصور ، وربما تظهر لنا الآثار تلك العلامة على التحقيق .

وجواب (لولا) محذوف أى لولا أن رأى العلامة الدالة على حضور سيدها ، لنفذ (فعلا) ما أَرادَه ، أى لساءها فعلا . ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ أى الأمر كان كذلك ، أو قدرنا ما قدرناه كما قصصناه عليك ، لنصرف عنه السوء والفحشاء ، فقدرنا حضور صاحب البيت في هذا الوقت لنصرف عنه السوء لو نفذ ما أَرادَه (فعلا) فإن إساءة المرأة خصوصا امرأة العزيز ليست بالأمر الهين ، بل تقوم لها الأمة وتقعده ، ويذاق بسببها ألوان العذاب ، وكذلك قدرنا عصمته فعصمناه لنصرف عنه الفحشاء فإنه لا عصمة إلا بنا ومنا .

﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ أى فعلنا به هذا ، ونجينا من السوء والفحشاء ، لأنه من عبادنا الذين أخلصناهم واصطفيناهم من الخلق ، أو أخلصوا لنا في عبادتنا وأحسنوا .

ثم قال تعالى : ﴿ واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ .

لما رأى يوسف عليه السلام برهان ربه عدل عن تنفيذ ما أَرادَه من السوء ، وأسرع نحو الباب ليتخلص من هذا الموقف الدقيق ، والنزاع العنيد ، فظنت امرأة العزيز أنه يريد الفرار منها ، فأسرعت وراءه لتمنعه وجذبتة من قميصه ، ليعود إليها فقدته من خلفه ، وهنا أَلفيا سيدها لدى الباب .

قد يقول قائل إذا كان هو قد رأى علامة حضور صاحب البيت فلم ترها امرأته ؟ قلنا : ليس بلازم ، خصوصا أنها في حالة قد غلب فيها الحب على عقلها ومشاعرها ، فلم تلتفت إلا إليه .

الشكوى والفصل فيها

ثم قال تعالى ﴿ قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ .

لما وجدت سيدها لدى الباب ، وكانت بحالة هياج وارتياب ، أرادت أن تؤثر عليه بما تفعل له نفسه ، فقالت ما جزاء (إلى آخر الآية) .

أسرعت بالشكوى إليه لتكون أقرب إليه قبولاً ، وأملأ له أذنا وقلبا ، ولتصرف عن فكره الحالة

المرية التي رآها عليها ، ولتفعل نفسه بما تبديه من تأثير ، حتى لا يصدق ليوسف قولاً إذا قال ، فقالت ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ .

وقد قرنت بين الشكوى منه والحكم عليه بالسجن ، أو العذاب الأليم ، لتظهر لسيدها شدة غضبها وتألمها مما حصل منه من إرادة السوء ، حتى لا يرتاب في حالتها التي رآها عليها (وهذا من ضمن الكيد) .

فانظر إلى عبارتها هل تجد فيها ما يدل على إرادة الفحشاء ، أو الميل إليها ، أو المخالطة كما يقولون ، مع أنها لو قالت ما جزاء من أراد بأهلك فاحشة لكان أشرف لها ، وأقرب لقبول قولها ، وأنفى للرية في حالتها التي كانت عليها وقت مجيء سيدها .

وجد سيدنا يوسف عليه السلام نفسه أمام صاحب البيت مشكوا منه ، يراد به السجن أو العذاب الأليم . بدون ذنب جناه ، سوى العفة والأمانة ، فلم يجد مناصاً من الدفاع عن نفسه لثلاث سجن أو يعذب العذاب الأليم ، أو يرمى بالقسوة ولولا ذلك لستر أمرها ، كما قال بعض المفسرين .

وهو في دفاعه لم يتصل من إرادة السوء ، بل ذكر السبب الذي كان من أجله أراد بها السوء ﴿ فقال هي راودتني عن نفسي ﴾ وهذا إقرار ضمنى في عرف التقاضى والتخاطب ، بأنه أراد بها السوء ، كما يقول القاضى للمتهم : هل ضربته ؟ فيقول إنه شتمنى . ومعناه أننى ضربته لأنه شتمنى ، فكذا هذا - أى أننى أردت بها السوء لأنها راودتني عن نفسي ، وغلقت الأبواب وأرادت المخالطة بالقوة ، فأردت إساءتها لأمنعها ، فلما رأيتك انصرفت عنها .

وأما هي فأنكرت المرادة ، بدليل قولها أخيراً ﴿ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ فإنه يدل على أنها أنكرتها أولاً ، وقع هذا القول في نفس العزيز موقعا قلل من تأثير زوجته عليه ، فأخذ يفكر ويبحث من الصادق منهما .

حادثة حصلت في بيته ، ولا شاهد فيها ، لأن الأبواب قد غلقت ، ولم يكن معهما أحد من الناس ، وهي تدعى أنه أراد بها سوءاً بدون سبب ، فأشكلت الحادثة عليه ، والتبست ، ولكن الله أراد إظهار براءة يوسف بشهادة شاهد من أهلها ، قد جعل القرينة حكماً وشاهداً فقال : ﴿ إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ .

فإن قد القميص من الخلف يدل على انصرافه عنها ، وأنها تجره إليها لهذا الغرض ، فيكون صادقا ، ولو كان الذى وقع منه إرادة السوء فقط لما كان لجره إليها من خلفه بعد انصرافه عنها معنى ، بل هو خلاف المعروف عادة ، لأن الضعيف كالمرأة لا يجز القوى الذى يريد إيذائه إليه بعد انصرافه عنه ، فقد

من الخلف يدل على أنها هي الطالبة له للمخالطة ، وقد القميص من الأمام يدل على أنه هو الذى أقبل عليها يريد بها سوءاً ، فأمسكت بتلابيه (كما هي عادة المرأة أو الضعيف إذا هجم عليه من يريد إيذائه) فقدت قميصه من الأمام ، فتكون صادقة في أنه أراد بها السوء بدون سبب .

﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر ﴾ تبين له أنه صادق ، وأنها كاذبة ولذلك وبخها بقوله ﴿ إنه من كيدكن ﴾ أى ما حصل منك من ادعاء إرادة السوء بدون سبب وإظهار الحقيقة من ضمن كيدكن ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ وأضاف الكيد إلى جميع النساء ، لأنه من عاداتهن ، لأنهن يظهرن خلاف ما يضمنن ، ويخفين ما فى قلوبهن ليصلن إلى أغراضهن ، وربما كانت الإضافة إلى الجميع ليخفف من وقع التوبيخ عليها ، وهذا أظهر .

ثم قال ليوسف عليه السلام ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ أى لا تذكره لأحد ، ولا تتأثر به ، ونصح زوجته بالتوبة والاستغفار من ذنبها وخطئها ، بقوله ﴿ واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ . وإلى هنا انتهت تلك الحادثة التى خلط فيها الناس خلطاً ، وإنك إذا فهمتها على هذا النحو ، وقرأتها فى كتاب الله فإنك تشعر بجلال آيات الله وانسجامها ، وبديع نظامها ، وبعدها عن التأويل المؤدى للتنافر فى المعانى ، والاعتراض على الأنبياء عليهم السلام .

[بقية]

قد يقول قائل : ما المراد بالسوء فى آيتي ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ ، ﴿ إن النفس لأماراة بالسوء ﴾ هل المراد به المرادة أو الميل إليها كما يقول بعض المفسرين ؟
والجواب أن المراد بالسوء هو ما تقدم ، دون المرادة والميل إليها .

وإلا كانت النسوة كاذبات حينئذ قلن : ما علمنا عليه من سوء ، فإنهن علمن أن امرأة العزيز راودته عن نفسه فاستعصم ، إلى آخر ما ذكر ، ولا يصح أن يكن كاذبات فى هذا الموضع الذى ظهرت فيه الحقائق ، ولو كن كذلك لما حكى الله قوهن بدون أن يرد عليهن ، فظهر أن السوء هو الإيذاء ونحوه لا المرادة ، ونحوها .

إن امرأة العزيز لما شاع أمرها تكلم فى شأنها النساء : ﴿ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكاً وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت ﴾ أى ليوسف ﴿ اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ﴾ من الدهشة والذهول بسبب جماله الفائق ﴿ وقلن حاشن الله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

وفى هذه الشهادة ما يشعر بالعفاف الملكى ، وكرم الأخلاق ، وأنه غض النظر عنهن .

﴿ قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين. قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين • فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ﴾ .

فلم يتهم بالسوء بعد هذه الحادثة الأخيرة ﴿ إنه هو السميع العليم • ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ .

لم يذكر الله لنا صراحة السبب الذى من أجله تمحلوه لإدخاله السجن ، ولكن الذى يؤخذ استنتاجاً من القصة أن امرأة العزيز أخذت تكيد له لتنفيذ وعيدها بقولها ﴿ ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .

فادعت أنه هو الذى أساء إلى هؤلاء النسوة ، فأدخلوه السجن من أجل ذلك ، رغم ظهور اختلافها عليه وكذبها فيما ادعته سابقاً ، ومما يدل على أنه سجن من أجل ذلك أنه لما أرسل إليه الملك رسوله ليحضره من السجن أبى أن يخرج منه حتى يتحقق للملك أنه حبس ظلماً بدون ذنب جناه ، وأن ما ادّعوه عليه بخصوص هؤلاء النسوة غير صحيح .

قال تعالى ﴿ فلما جاءه الرسول قال ﴾ أى يوسف ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ﴾ .

فأحضرهن الملك وسأهن ﴿ ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ أى ما شأنكن وقت أن راودتن يوسف هل حصل منه إساءة لكن ؟ ﴿ فقلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ أى لم يحصل لنا منه سوء ، بل لم نعلم عليه سوءاً .

فدل ذلك دلالة استنباطية على أن الحبس كان بسبب الادعاء عليه بأنه أساءهن بتقطيع أيديهن ، ولذلك جاء في تفسير النيسابورى عند قوله تعالى ﴿ وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ﴾ أنها تسببت فى إدخاله السجن ا.هـ .

ولما ظهر لامرأة العزيز أن كيدها قد انكشف ، وبان للملك ، اعترفت بالحق ، وهو ما أنكرته أولاً ، فقالت ﴿ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ذلك ﴾ أى هذا الاعتراف الذى أظهره أمامك ﴿ ليعلم ﴾ أى يوسف لأن الكلام مازال فى شأنه ﴿ أنى لم أخنه بالغيب ﴾ إذ أبى أظهر الآن صدقه وبرأته بعد أن خنته ، فادعيت عليه السوء ، وتسببت فى إدخاله السجن ، فأعترف الآن بذنبي ، وبجقيقة الأمر ، وحتى يصير الخفى علانية ، والخيانة غير خافية عليه .

والخيانة ضد الأمانة ، وفى الحديث (إنما يجلس المتجالسان بالأمانة) أى الصدق والإخلاص وعدم الغش .

ثم قالت : ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ فقد أذنبت وأسأت ، ثم اعتذرت عما كان منها ، فقالت ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ﴾ وقد أسأت بداعية منها ، ولكنني طامعة في غفران الله ورحمته ، إذ نطقت بالحق ، واعترفت بالذنب ، والاعتراف يهدم الاقتراف ، ﴿ إن ربي غفور ﴾ لذنوب عباده ﴿ رحيم ﴾ (بهم) نسأله الرحمة والغفران .

ولما ظهرت براءة يوسف عليه السلام من إقرار النسوة ، واعتراف امرأة العزيز ، قال ﴿ الملك ائتموني به أستخلصه لنفسي ﴾ فذهبوا إليه يحملون هذه البشري بالبراءة والاستخلاص للملك ، واعتراف امرأة العزيز ، وشهادة النسوة ، فخرج معهم كما أراد ظاهرة براءته وأمانته وعفته للملأ جميعاً . فلما وصل إلى الملك قال له ، ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ وما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، وما جزاء الأمانة إلا الفلاح ، وحسن السمعة والعاقبة .

فظهر أن هذه القصة ليست مسوقة لبيان خطأ الأنبياء الذين يقول الله فيهم لنبينا ﷺ ﴿ فبهدهم اقتده ﴾ وإنما سيقت لما فيها من حكم اجتماعية ، وقواعد عمرانية وأخلاقية لتكون نبراساً يستضيء به في حياته .

وإني أذكر بعض ما استنتجته منها ، بقدر ما وصل إليه فهمي الكليل ، فأقول :

أولاً: تنبيه الناس إلى العمل بالقرائن فيما يشكل من الأمور .

ثانياً : مقابلة الإحسان بالإساءة ظلم . ﴿ ولا يفلح الظالمون ﴾ .

ثالثاً : خيانة المرأة لزوجها ظلم وكفر بالإحسان ، وعاقبته الخسران .

رابعاً : الأمين المخلص إذا اتقى الله نجاه ، وكافأه على أمانته وإخلاصه ، ولو أساء إليه من أخلص

له .

خامساً : يبلغ الإنسان بالعلم والإحسان مقاما ساميا لدى الملوك والناس .

سادساً : اختيار السجن على فعل الكبيرة أو الخيانة ولو كان فيه التمتع بلذات الحياة كما يشاء ، من

مال وغيره ، من صفات الأبطال .

سابعاً : مخالطة الرجال الأقوياء من الخدم وغيرهم لربات البيوت ، والخلوة بهن ، مدعاة للفساد

والفجور ، إلا من عصم الله ، وفي الأحاديث كثيرة في النهي عن ذلك .

ثامناً: التوقى من كيد النساء ومكرهن أقرب إلى الحزم ، وأبعد عن الظلم ، وأحسن عاقبة وعلى

العاقل الثبوت في تصديقهم عند غضبهم .

تاسعاً : من المقاصد الشريفة لدى العقلاء أن يعملوا على نفي التهمة الباطلة عن أنفسهم ، وإظهار

براءتهم ، خصوصاً إذا كان ممن يقتدى بهم ، ولنا في شريعتنا على ذلك أمثلة كثيرة ، وفقنا الله تعالى إلى

اتباعها والعمل بها ، آمين .

حديث النسوة

* وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَأًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّارَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ أُمْرَةٍ لِّيَسْجَنَنَّ وَلِيََكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لِيَسْجَنَنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

المفردات : ﴿ فتاها ﴾ : عبدها ورقيقها . ﴿ والشغاف ﴾ : الغلاف المحيط بالقلب ويقال شغفت فلانا إذا أصبت شغاف قلبه . كما يقال كبده إذا أصبت كبده . ﴿ والضلال ﴾ : الحيدة عن طريق الرشاد وسنن العقل . ﴿ بمكرهن ﴾ : أى بقولهن . وسمى ذلك مكرًا لأنهن كن يردن إغضاها كى تعرض عليهن يوسف لتبدي عذرها فيفرن بمشاهدته . ﴿ وأعتدت ﴾ : أعدت وهيات . ﴿ والمتكأ ﴾ : ما يجلس عليه من كراسى وأرائك . ﴿ أكبرنه ﴾ : أعظمته ودهشن من جماله الرائع . ﴿ وقطعن أيديهن ﴾ : أى جرحها . ﴿ حاش لله ﴾ : أى تنزيها لله أن يكون هذا المخلوق العجيب من جنس البشر . ﴿ استعصم ﴾ : استمسك بعروة عصمته التى ورثها عنم نشأوا عليها . ﴿ الصاغرين ﴾ : أى الأذلة المقهورين . ﴿ أصب إليهن ﴾ : أمل إلى موافقتهم على أهوائهم . ﴿ الجاهلين ﴾ : أى السفهاء الذين يرتكبون القبائح . ﴿ فاستجاب له ﴾ : أى أجاب دعاءه . ﴿ وبدأ ﴾ : ظهر . ﴿ والآيات ﴾ : هى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام . ﴿ والحين ﴾ : وقت من الزمن غير محدود .

شاع الخبر بين نسوة فى المدينة ، فقلن بلسان الإنكار : إن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حباً ، وما كان لها أن تفعل ذلك وهى السيدة التى تعيش فى بيت الحكم ، وهو الفتى المملوك لها .

وقوله تعالى ﴿ تراود فتاها ﴾ بصيغة المضارع أى أنها مازالت مستمرة فى المرادة ، وقوله ﴿ قد شفغها حباً ﴾ أى احترق حبه شغاف قلبها ، بحيث تمكن فيه كل تمكن ﴿ إنا لنراها فى ضلال مبين ﴾ .
وقد يتسرب الخبر عن طريق الخدم وغيرهم من الذين يعملون فى القصور ، بحيث يشيع وينتشر بين جماعة من أصحاب البيوتات .

فلما سمعت امرأة العزيز بمكرهن ، أى بقولهن الماكر ، فإنهن ما قلن هذا القول إلا لتدعوهن امرأة العزيز ، وتعرض عليهن يوسف ، فيملأن عيونهن بجماله .

قال المفسرون : فمكرت بهن ، كما مكرن بها ، ودعتن إلى الطعام فى دارها ، وهيات لهن ما يتكفن عليه من كراسى وأرائك ، كما هو المعروف فى بيوت العظماء ، وكان ذلك فى حجرة المائدة ، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً لتقطع بها ما تأكل من لحم وفاكهة .

﴿ وقالت اخرج عليهن ﴾ أى وأمرته بالخروج عليهن ، وفى هذا إيحاء إلى أنه كان فى حجرة فى داخل حجرة المائدة التى كن فيها ، محجوباً عنهن ، وقد تعمدت إتماماً للحيلة والمكر بهن أن يفاجئهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه ، علماً منها لما تكون لهذه المفاجأة من الدهشة ، وقد تم لها ما أرادت كما يشير إلى ذلك قوله : ﴿ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ﴾ .

أى فخرج عليهن ، فلما رأينه أعظمه ، ودهشن لذلك الجمال البارع ، وذهلن ، فقطعن أيديهن بدلاً من تقطيع ما يأكلن ذهولاً عما يعملن ، أى فجرحنها بما فى أيديهن من السكاكين ، لفرط دهشتهم ، وخروج حركات الجوارح عن منهاج الاختيار ، حتى لم يشعرن بما عملن ، ولا ألن لما نالهن من أذى ، واستعمال القطع بمعنى الجرح كثير فى كلامهم ، فيقولون : كنت أقطع اللحم فقطعت يدي ، يريدون فأخطأتها فجرحت يدي ، حتى كدت أقطعها .

﴿ وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ :

أى وقلن هذا على نهج التعجب والتنزيه لله تعالى ، أن يكون هذا الشخص الذى لم يعهد مثاله فى جماله ، ولا فى عفته من النوع الإنسانى ، إن هو إلا ملك تمثل فى تلك الصورة البديعة التى تخلب الأبواب ، وتدهش الأبصار .

روى عن زيد بن أسلم من مفسرى السلف : أعطتهن أترجاً وعسلاً ، فكن يجزون بالسكين ، ويأكلنه بالعسل ، فلما قيل له : اخرج عليهن ، خرج فلما رأينه أعظمه وتهيمن به ، حتى جعلن يجزون أيديهن بالسكين وفيها الأترجة ، ولا يعقلن ، ولا يحسنن إلا أنهن يجزون الأترج ، وقد ذهبت عقولهن مما رأين ، وقلن حاش لله ما هذا بشراً ، أى ما هكذا يكون البشر ، ما هذا إلا ملك كريم .

﴿ قالت فذلكن الذى لمتنى فيه ﴾ أى حينئذ قالت لهن : إذا كان الأمر ما رأيتن بأعينكن ، وما

أكبرتن في أنفسكن ، وما فعلتن بأيديكن ، وما قتلن بألسنتكن ، فذلك هو الذى لمتننى فيه ، وأسرفتن في لومى وتعنيفى ، وقتلن في ما قتلن ، فما يوسف بالعبد العبرانى ، أو المملوك الكنعانى ، ولا بالخدام الصعلوك ، الذى شغف مولاته حبا وغراما ، وراودته عن نفسه ضلالا منها وهياما ، بل هو ملك تجلى في صورة إنسان ، فماذا أنتن قاتلات في أمرى وهو المالك لسمعى وبصرى ، وإنى لأراه بشرا سويا إنسيا لا جنيا ، وجسدا لا ملكا روحانيا ، فأتصباها بكل ما أملك من كلام عذب ، فلا يصبو إلى ، ولا يظهر نحوى عطفا ، ولا يرفع إلئى طرفا .

﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ أى ولقد راودته عن نفسه فامتنع عما أردته منه واستمسك بعروة العصمة التى ورثها عن نساؤها عليها ، ولا عجب فإن نظره إلى الله لم يدع في قلبه البشرى مكانا خاليا لنظرات هذه العاشقة التى شغفها حبا .

﴿ ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .

أى ولئن لم يفعل ما أمره به مستقبلا ، كما لم يفعله ماضيا ، ليسجنن وليكونن من الأذلة المقهورين ، فإن زوجى لا يخالف لى رغبة ، ولا يعصينى فى أمر ، وسيعاقبه بما أريد ، ويلقيه فى غيابات السجون ، ويجعله كغيره من العبيد بعد إكرام مثواه ، وجعله كولده .

وفى ذلك إيماء إلى أنها ستشدد العقوبة عليه أكثر مما توعدت به أولا ، فهناك أذنته بسجن قد يكون على أخف صورة وأقلها ، وعذاب بأهون أنواعه وألطفها ، كحبس فى حجرة الدار ، أو لظمة على خديه تزيل منها الاحمرار ، وهنا أذنته بسجن مؤكد ، وذلل وصغار ، تأباه الأنفس الكريمة كنفس يوسف عليه السلام ، فأشق الأعمال أهون على كرام الناس من الهوان والصغار .

وفى هذا التهديد من ثقها بسلطانها على زوجها ، مع علمه بأمرها ، واستعظامه لكيدها ، ما كان من حقه أن يجعل يوسف يخاف من تنفيذ إرادتها ، ويثبت لديه عدم غيرته عليها ، كما هو الحال لدى كثير من العظماء المترفين العاجزين عن إحصان أزواجهن ، والمحرومين من نعمة الأولاد منهم .

وربما تكون مبالغتها فى تهديده بمحضر من هؤلاء النسوة لما فى قلبها منه من غل وجوى ، بظهور كذبا وصدقه ، وتصميمه على عصيان أمرها ، ولتظهر ليوسف أنها ليست فى أمرها على خيفة من أحد ، فتضيق عليه الخيل ، ولينصحنه فى موافقتها ، ويرشدنه إلى الخلاص من عذابها .

يا لله ، إن هذا الموقف يهد الجبال الراسيات ، وتدبير لا قبل لأشد العزائم على احتماله ، فامرأة ماكرة ، هتكت سترها ، وكاشفت نسوة بلدها بما تسر وتعلن من أمرها ، ونسوة تواطن معها على الكيد له ، كما كادت له من قبل بمرادته عن نفسه ، ولا سبيل إلى دفع هذه الضراء ، وأبعاد تلك اللأواء إلا بمعونة من ربه ، وحفظه من نزعات الشيطان ، وكلاءة الرحمن ، ومن ثم جرى على لسانه ما أكنه جنانه :

﴿ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾

أى قال ربى أنت العليم بالسر والنجوى ، والقدير على كشف تلك البلوى ، إن السجن الذى هددت به ، والمكث فى بيعة المجرمين على شظف العيش ، ورقة الحال ، أحب إلى نفسى مما يدعوا إليه أولئك النسوة من الاستمتاع بهن فى ترف القصور ، والاشتغال بحبهن عن حبك وبقربهن عن قربك . وفى قوله ﴿ مما يدعونني إليه ﴾ إيماء إلى أنهم خوفه مخالفتها ، وزين له مطاوعتها ، فقلن له : أطلع مولاتك وأنلها ما تهوى ، لتكفى شرها ، وتأمّن عقوبتها .

﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن ﴾ أى وإن لم تبعد عني شرك كيدهن ، وتثبتنى على ما أنا عليه من العصمة أئمل إلى موافقتهم على أهوائهم ، وأقع فى شباك صيدهن ، وأرتع فى حماة غوايتهم .

وقد لجأ يوسف إلى أطاف ربه ، وسلك سبيل المرسلين من قبله فى فزعهم إلى مولاهم ، لينيلهم الخيرات ، ويبعد عنهم الشرور والموبقات ، وإظهارهم أن لا طاقة لهم إلا بمعونته سبحانه ، مبالغة فى استدعاء لطفه ، وعظيم كرمه ومنه .

﴿ وأكن من الجاهلين ﴾ : أى من السفهاء الذين تستخفهم الأهواء والشهوات ، فيجنحون إلى ارتكاب الموبقات ، واجتراح السيئات ، فمن يعيش بين هؤلاء النسوة الماكرات المترفات ، لا مهرب له من الجهل إلا أن تعصمه بما هو فوق الأسباب ، والسنن العادية .

وفى هذا إيماء إلى أنه ما صبا إليهن ، ولا أحب أن يعيش معهن ، بل سأل ربه أن يديم له ما عوده من كشف سوء عنه ، فى قوله ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ .

﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ﴾ : أى فأجاب له ربه دعاءه ، الذى تضمنه قوله : ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن ﴾ الخ ﴿ فصرف عنه كيدهن ﴾ وعصمه من الجهل والسفه ، باتباع أهوائهم .

﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ : أى إنه هو السميع لدعاء من تضرع إليه ، وأخلص الدعاء له ، العليم بصدق إيمانهم ، وبما يصلح أحوالهم .

وفى هذا إرشاد إلى أن ربه حرسه بعنايته فى جميع أطواره وشئونه ، ورباه أكمل تربية ، وما خلاه ونفسه فى أهون أموره . ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ .

أى ثم ظهر للعزیز وامرأته ، ومن يهمة أمرهما ، كالشاهد الذى شهد عليها من أهلها من الرأى مالم يكن ظاهرا لهم من قبل ، بعد أن رأوا من الآيات ما اختبروه بأنفسهم ، وشهدوه بأعينهم ، مما يدل على أن يوسف لم يكن إنسانا كالذين عرفوا فى أخلاقه وعفته ، واحتقاره للشهوات واللذات التى يتمتع بها سكان القصور ، وفى إيمانه بأن ربه لن يتركه ، بل يكلؤه بعين عنايته ، ويحرسه بوافر رعايته ، وقد استبان لهم ذلك من وجوه :

(١) إن افتتان سيدته في مرادوته ، وجذبها خلسات نظره ، لم تؤثر في ميل قلبه إليها ، بل ظل معرضاً عنها ، متجاهلاً لها ، حتى إذا ما صارحته بما تريد استعاذ بربه ورب آبائه ، وعيرها بالخيانة لزوجها .
 (٢) إنها لما غضبت وهمت بالبطش به ، هم بمقاومتها والبطش بها ، ولم يمنعه إلا ما رأى في دخيلة نفسه من برهان ربه الذي يدل على أن ربه صارف عنه السوء والفحشاء .
 (٣) إنها حين اتهمته بالتعدى عليها شهد شاهد من أهلها أنها كاذبة في اتهامها إياه ، وهو صادق فيما ادعاه من مرادوتها إياه عن نفسه ، بدلالة القميص على ذلك .

كل هذا أثبت أن بقاءه في هذه الدار بين ربته وصدقاتها ، مثار فتنة لا تدرك غايتها ، وأن الحكمة هو تنفيذ رأيها الأول بسجنه ، لإخفاء ذكره ، وكف أسنة الناس عنها في أمره ، وأقسموا ليسجنه حتى حين ، دون تقيد بزمن معين ، ليروا ماذا يكون فيه من تأثير السجن ، وحديث الناس عنه .
 وفي تنفيذ هذا العزم دلالة على ما كان لهذه المرأة الماكرة من سلطان على زوجها ، تقوده كيف شاءت ، حتى فقد الغيرة عليها ، فهو يجرى وراء هواها ، ويستجلب رضاها ، حتى أنساه ذلك ما رأى من الآيات ، وعمل برأيها في سجنه لإلحاق الهوان والصغار به ، حين أيست من طاعته ، وطمعت في أن يذلل السجن لأمرها ، ويقف به عند مشيئتها .

شهود يوسف

شهد الله تعالى ببراءة يوسف وهو خير الشاهدين ، قال تعالى ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ ولم يقل كذلك لنصرفه عن السوء والفحشاء ، والفرق بين المعنيين بعيد ، إن قوله تعالى ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ يفيد أن يوسف كان ثابتاً على بساط العفة ، ثابتاً لا ترحزحه القواصف ، ولا تؤثر فيه العواصف ، فأبعدنا السوء والفحشاء عنه .

كذلك شهد ببراءته إبليس . فقد قال لرب العزة ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ إلا عبادك منهم المخلصين ﴿^(١) والله تعالى قال عن يوسف ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ . فهو من الذين استثناهم إبليس من الغواية .

كذلك شهد ببراءته شاهد من أهلها ، وهو الذي قال ﴿ إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ .

كذلك شهد ببراءته امرأة العزيز نفسها عندما قالت : ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ . وقالت ﴿ الآن حصح الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ .

كذلك شهد ببراءته النسوة اللاتي قطعن أيديهن فقد قال لهن الملك ﴿ ما خطبكن إذ راودتن

يوسف عن نفسه قلن حاشن لله ما علمنا عليه من سوء ﴿١٠﴾ . وكلمة سوء نكرة جاءت في سياق النفي ، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم ، أى ما علمنا عليه أى سوء .

وكأنى بيوسف عليه السلام ، وقد غلقت عليه امرأة العزيز الأبواب ، وأخذت تراوده عن نفسه ، فتقول : ما أجمل شعرك . قال : أول ما يتساقط منى بعد الموت . قالت : ما أجمل عينيك . قال : أول ما يسيل منى بعد الموت . قالت : ما أجمل جسمك . قال : أول ما يأكله الدود بعد الموت . قالت : هيت لك . قال : معاذ الله .

كانت تحلق به في عالم الإغراء والغواية ، وكان يشدها شدا إلى الموت الذى يهزم اللذات ، في بيت الوحشة ، وبيت الوحدة ، وبيت التراب ، وبيت الدود ، كأنى به يخاطب رب العزة فيقول ما قاله أحد الصالحين :

لما علمت بأن قلبى فارغٌ من سواك ملأته بهواك
وملأت كلى منك حتى لم أدع منى مكانا خاليا لسواك

لقد كان لها صنم تعبده ، فلما غلقت الأبواب قامت فألقت على الصنم غطاء ، قال لها يوسف : لم تغطين هذا الصنم ؟ قالت : أستحي أن يرانى وأنا أراودك عن نفسى . قال يوسف ، وقد أخذته الدهشة ، واستولى عليه العجب : تستحين من صنم لا يسمع ولا يبصر ، ولا تستحين من الله السميع البصير .

أبعد هذه العفة والخوف من الله ، والاستعاذة بالله ، تزل أقدام ، وتتعرأ أقلام ، وينفلت خيال بعض الكاتبين من الذين يعضغون الهواء ، ويفتلون من الرمال حبالا ، ويجعلون من الحبة قبة ، ومن التلمة فيلا ، إنهم أقزام يحاولون أن يطاولوا السماء ، أو أن يمدوا إلى الشمس يداً سلاء .

محنة السجن

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَحِي السِّجْنَ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْحَحِي السِّجْنَ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

المفردات: ﴿ أعصر خمرًا ﴾ المراد عبا يكون خمرًا . ﴿ بتأويله ﴾ : بتفسيره الذي يؤول إليه في الخارج .
 ﴿ تستفتيان ﴾ : الاستفتاء طلب الفتوى أى السؤال عن المشكل المجهول والفتوى جوابه وهذا اللفظ مأخوذ من الفتوى الدالة على القوة والثقة . ﴿ بضع ﴾ : هى من ثلاث إلى تسع ويغلب أن يطلق على السبع .

قوله تعالى ﴿ ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إلى أراى أعصر خمرًا وقال الآخر إلى أراى أحمل فوق رأسى خبزًا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾ .

قال قتاده : كان أحدهما ساق الملك ، والآخر خبازه .

وقال السدى : كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه . وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة ، وصدق الحديث ، وحسن السمات ، وكثرة العبادة ، صلوات الله عليه وسلامه ، ومعرفة التعبير ، والإحسان إلى أهل السجن ، وعبادة مرضاهم ، والقيام بحقوقهم .

ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تألفا به وأحباها حبا شديداً ، وقالوا له : والله لقد أحبينك حبا زائداً .

وقال الضحاك في قوله ﴿ إلى أراى أعصر خمرا ﴾ يعنى عنبا ، قال : وأهل عمان يسمون العنب خمرا ، وقال الآخر وهو الخباز ﴿ إلى أراى أجمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه نبثنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربي إلى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ واتبع ملة آباءى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

أخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في منامهما ، فإنه عارف بتفسيره ، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ، ولهذا قال ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ﴾ .

قال مجاهد : يقول ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه ﴾ في يومكما ﴿ إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ﴾ ثم قال : وهذا إنما هو من تعليم الله إياى ، لأنى اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر ، فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فى المعاد .

﴿ واتبع ملة آباءى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ الآية .

يقول هجرت طريق الكفر والشرك ، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهكذا حال من سلك طريق الهدى ، واتبع طريق المرسلين ، وأعرض عن طريق الضالين ، فإن الله يهدى قلبه ، ويعلمه ما لم يكن يعلم ، ويجعله إماما يقتدى به فى الخير ، وداعيا إلى سبيل الرشاد . ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾ هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿ من فضل الله علينا ﴾ أى أوحاه إلينا ، وأمرنا به ﴿ وعلى الناس ﴾ إذ جعلنا دعاء لهم إلى ذلك ، ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ : أى لا يعرفون نعمة الله عليهم ، بإرسال الرسل اليهم ، بل ﴿ بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ (١) .

(١) الآية ٢٨ من سورة إبراهيم .

وقوله تعالى ﴿ يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار * ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وأبائكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيتين بالمخاطبة ، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع مادون سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما ، فقال ﴿ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ أى الذى ذل كل شيء لعز جلاله وعظمة سلطانه .

ثم بين أن التى يعبدونها ويسمونها آلهة ، إنما هو جهل منهم وتسمية من تلقاء أنفسهم ، تلقاها خلفهم عن سلفهم ، وليس لذلك مستند من عند الله ، ولهذا قال ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أى حجة وبرهان .

ثم أخبرهما أن الحكم والتصرف والمشية والملك كله لله ، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه ، ثم قال تعالى ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أى الذى أدعوكم إليه من توحيد الله ، وإخلاص العمل له ، هو الدين المستقر الذى أمر الله به ، وأنزل به الحجة والبرهان الذى يحبه ويرضاه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أى فلهذا كان أكثرهم مشركين ، ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾^(١) .

قوله تعالى ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرًا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ .

يقول لهما ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرًا ﴾ وهو الذى رأى أنه يعصر خمرًا ، ولكنه لم يعينه ، لئلا يجزئه ذلك ، ولهذا أبهمه فى قوله ﴿ وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾ وهو نفس الأمر الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا ، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه ، وهو واقع لا محالة ، لأن الرؤيا على رجل طائر مالم تعير ، فإذا عيرت وقعت .

وقوله تعالى ﴿ وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين ﴾ .

ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساق ناج ، قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم لئلا يشعره أنه المصلوب - قال له ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ يقول : اذكر قصتى عند ربك ، وهو الملك .

ففسى ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك ، وكان من جملة مكاييد الشيطان لئلا يطلع نبي الله من السجن ، هذا هو الصواب أن الضمير فى قوله تعالى ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ عائذ على الناجى ، كما قاله مجاهد وغير واحد .

(١) الآية ١٠٣ من سورة يوسف .

وأما البضع فقال مجاهد وقتادة : هو ما بين الثلاث إلى التسع .
وهكذا أراد الله تعالى أن يمتحن يوسف بالسجن ، بعدما نجاه من امرأة العزيز ، وأشد الناس بلاء
الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، ويتلى المرء على قدر دينه .
ولا بد للمؤمن أن يكون صابرا عند البلاء ، راضيا بالقضاء ، شاكرا للنعماء ، فقد ورد في
الحديث : (من رضى بقضائي ، ووقع بعطائي ، وشكر نعمائي ، وصبر على بلائي كتبت له صديقا ، وبعثته يوم
القيامة مع الصديقين ، ومن لم يرض بقضائي ، ولم يوقع بعطائي ، ولم يشكر نعمائي ولم يصبر على بلائي ،
فليخرج من تحت سماي وليتخذ له ربا سواي) .

فاللهم إنا نشهدك ، ونشهد ملائكتك ، وحمة عرشك ، وجميع خلقك ، إنا قد رضينا بك رباً ،
وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، آمنا بما أنزلت ، واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين .

رؤيا الملك

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنْبُلَاتٍ خَضِرٍ
وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَايَ تَعْبُرُونَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا أَضْغَثُ
أَحْلَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَلِيمِينَ ﴿٤٣﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ
أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٤﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ
سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خَضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى
النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ
إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٦﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا
قَلِيلًا مِمَّا مَحْصُونُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾

المفردات : ﴿ السَّمَانُ ﴾ : واحدها سمين وسمينة ، ﴿ والعجاف ﴾ : واحدها عجفاء
أى هزيلة ضعيفة ، ﴿ والسنابل ﴾ : واحدها سنبله وهى ما يكون فيها الحب ، ﴿ واليابس من
السبل ﴾ : ما آن حصاده ، ﴿ وعبرت ﴾ الرؤيا وعبرتها (بالتخفيف والتشديد) فسرتها ببيان المعنى
الحقيقى المراد من المعنى المثالى كمن يعبر النهر بالانتقال من ضفة إلى أخرى ، ﴿ والأضغاث ﴾ :
واحدها ضغث وهو الحزمة من النبات ، ﴿ والأحلام ﴾ واحده حُلْم (بضمين وبالتسكين

للتخفيف) : ما يرى في النوم ، وهو قد يكون واضح المعنى كالأفكار التي تكون في اليقظة ، وقد يكون مهوشاً مضطرباً فهو يشبه بالتضاعيف كأنه مؤلف من حزم مختلفة من العيدان والحشائش التي لا تناسب فيها ، ﴿ واذكر ﴾ : تذكر (أصله اذتكر) ، ﴿ والدأب ﴾ : استمرار الشيء على حال واحدة يقولون هو دأب بفعل كذا إذا استمر في فعله ، ﴿ فذروه ﴾ : أى اتركوه وادخروه ، ﴿ والشداد ﴾ : الصعاب التي تشتد على الناس ، ﴿ وتحصنون ﴾ أى تحرزون وتدخرون للبذر ، ﴿ وأغاثه ﴾ : أعانه ونجاه ، وغوث الرجل : قال : واغوثاه ، واستغاث ربه : استنصره وسأله الغوث ، ﴿ ويعصرون ﴾ : أى مامن شأنه أن يعصر كالزيت من الزيتون والشيرج من السمسم والأشربة من القصب والنخيل .

ذكر المؤرخون أن ملك مصر في عهد يوسف كان من ملوك الغرب الذين يسمون بالرعاة (الهكسوس) وأنه قد رأى رؤيا عجز الكهنة والعلماء ورجال الدولة عن تأويلها ، وقالوا : أضغاث أحلام . وكان من هذا أن لجئوا إلى يوسف في تأويل الرؤيا ، وبه تم اتصاله بالملك ، وتعيينه وزيراً له .

﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع ﴾ بقرات ﴿ عجاف ﴾ هزيلات وأرى سبع سنبلات خضر ﴾ وأخرى سنبلات يابسة مهياة للقطوف ، ﴿ يا أيها الملأ ﴾ من قومي ﴿ أفتوني في رؤيائي ﴾ هذه ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ وتنقلون الخيال والرموز إلى الواقع والحقائق .

﴿ قالوا ﴾ هي أحلام مختلطة ، وخیالات غير منتظمة وهذه ﴿ أضغاث أحلام ﴾ لا تأويل لها وتفسير وإنما هي رموز مضطربة تنشأ من ارتباك في المعدة ، وكدره في النفس أحياناً ، ﴿ وما نحن بتأويل ﴾ أمثالها ﴿ بعالمين ﴾ .

وهكذا إعداد الله لبعض خلقه ، وترتيبه لهم ، جعل الكهنة وعلماء المصريين يعجزون عن تأويل الرؤيا ، فيبحثون عن من يؤول لهم ، فلا يجدون إلا يوسف .

وقال صاحبه القديم الذي كان في السجن معه واختبره عن كذب ، وأدرك ما عليه نفسه ، وما عنده من علوم ومعارف في تأويل الرؤيا ، وقد تذكره بعد طول الزمن : يا قوم لا تبحثوا ، إني ﴿ أنبئكم ﴾ بتأويل هذا الحلم ﴿ فأرسلون ﴾ إلى السجن فإن فيه فتى قد خبرته ووقفت منه على أسرار ، فأرسلوه ليوسف فقابله وقال له : ﴿ يوسف أيها الصديق أفتنا في ﴾ رؤيا رآها الملك تلخص في ﴿ سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ﴾ أخبرني فإنك بتأويل الرؤيا من العالمين .

قال يوسف مؤولاً الرؤيا ، ومبيناً لهم ما يجب عمله لتلافي الخطر الذي تشير له الرؤية بالرمز ، مع اعتزازه برأيه وأن له صفة الأمر الناصح :

﴿ تزرعون ﴾ على معنى ازرعوا ﴿ سبع سنين ﴾ قمحاً وشعيراً دائبين مجدين بلا انقطاع وإذا فعلتم ذلك ﴿ فما حصدم ﴾ فاتركوه في سنبله ليكون الحب لكم والتين لدوابكم .

وهذه طريقة عملية دقيقة لحفظ المحصول .

اصنعوا هذا في المحصول كله ﴿ إلا قليلا مما تأكلون ﴾ فهذا هو تأويل البقرات السبع ، والسنايل السبع .

﴿ ثم يأتي من بعد ذلك سبع ﴾ سنين في جديهن وانقطاع الخير فيهن ، يأكلن ما قدمت تلك السنون الأولى من المحصول المدخر ، والمراد ما في تلك السنين تأكل الكل ﴿ إلا قليلا مما تحصنون ﴾ وتدخرون للبذر ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك ﴾ كله عام فيه يكون الرخاء على أتم ما يكون وأحبه ، ﴿ عام فيه يفاث الناس ﴾ بكل أنواع الإغاثة من مطر وحسن محصول ، ومنع للآفات وفي هذا العام ﴿ يعصرون ﴾ عصير القصب والفاكهة ، وعصير العنب والسمسّم والزيتون ألخ .

وهذا الإخبار الأخير الخاص بهذا العام من قبيل الوحي والإلهام ، وليس جزءاً من تأويل الرؤيا . والله أعلم .

الإفراج عن يوسف عليه السلام

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُوتَنِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ
النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٦﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رُودْتُنَّ
يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ ۗ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۗ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ
الَّذِينَ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رُودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي
لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾

المفردات : ﴿ بال النسوة ﴾ : حالهن وأمرهن الذي يشغل البال ، ﴿ خطبكن ﴾ :
أمركن العظيم وخطبكن الجسم ، ﴿ حصص الحق ﴾ : ظهر الحق .
﴿ أستخلصه ﴾ : المراد أجعله خالصاً لنفسى لا يشاركنى فيه أحد . ﴿ مكين ﴾ : ذو مكانة .
﴿ يتبوا ﴾ : ينزل من مصر في أى مكان أرادته ، والمراد أنه صاحب الأمر .

يقول تعالى إخباراً عن الملك ، لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه ، فعرف فضل يوسف عليه السلام ، وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه ، وحسن أخلاقه على من يبلده من رعاياه .
فقال : ﴿ اتتوني به ﴾ أى أخرجوه من السجن وأحضروه ، ﴿ فلما جاءه الرسول ﴾ بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ، ونزاهة عرضه ، مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز . وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه بل كان ظلماً وعدواناً .

فقال : ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ الآية .

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك . والتنبية على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره صلوات الله وسلامه عليه .

فقد روى الإمام أحمد والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾ الآية . ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبث في السجن ما لبث يوسف لأجبت الدعوى ﴾ (١) .

وفي لفظ أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله ﴿ فاسأله مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ﴾ فقال رسول الله ﷺ (لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر) (٢) .

وقال عبد الرزاق في الحديث المرسل عن عكرمة قال : قال رسول الله ﷺ « لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ولكنه أراد أن يكون له العذر » .

قوله تعالى : ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ .

إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز ، فقال مخاطباً لهن كلهن ، وهو يريد امرأة العزيز ، وزيره وهو العزيز قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن : ﴿ ما خطبكن ﴾ أى شأنكن وخبركن ﴿ إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ يعنى يوم الضيافة .

﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ أى قالت النسوة جواباً للملك حاش لله أن يكون يوسف متهماً والله ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ .

فعند ذلك ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ﴾ : قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد نقول الآن تبين الحق ، وظهر وبرز .

﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ أى في قوله ﴿ هى راودتنى عن نفسى ﴾ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب :

نقول إنما اعترفت بهذا على نفسى ، ليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب فى نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فهذا اعترفت ليعلم أنى بريئة ﴿ وأن الله لا يهدى كيد الخائنين *

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء (١) وفى التفسير (سورة ٢ : ٤٦) . ومسلم فى الإيمان (٢٣٨) وفى الفضائل (١٥٢) . وابن ماجه فى

الفتن (٢٣) . وإمام أحمد فى (٢ : ٣٢٦) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ : ٣٤٦ ، ٣٨٩) .